الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة أكلي محند أولحاج - البويرة -
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
ⴰⵙⴷⴰⵡⴰⵍ ⴰⴽⵍⵉ ⵎⵓⵃⵏⴷ ⵓⵍⵃⴰⵊ - ⵜⵓⴱⵉⵔⵜ -

جامعة البويرة

كلية الأدب واللغات
Faculté des Lettres et des Langues

قسم: اللغة العربية والأدب العربى

تخصص: نقد حديث ومعاصر

رواية تامزقيدا لعيسى تواتي: دراسة سوسيولوجيّة

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

إعداد الطالبين:
- شعبان تونسي
- رابحي محمّد

إشراف الأستاذ:
أ.د/ سالم سعدون

لجنة المناقشة

1- أد/ عيسى طيبي	جامعة البويرة	رئيسًا.
2- أد/ سالم سعدون	جامعة البويرة	مشْرِفًا ومقرّرًا.
3- أ/ فتيحة بلحسين	جامعة البويرة	عضوا ممتحنا.

السنة الجامعية: 2022/2021

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــــداء

ـــ إلى من كانت ، ولا زالت الأولى بحياتي .
أمّي ...رفيقة دربي ...منذ أوّل خطواتي.
ـــ إلى روح أبي ، أثابه الله بأجر هذا العمل.
ـــ إلى زّوجتي الكريمة ، وأولادي الأعزّاء: أسماء ، ومريّا ، ومحمّد عبد المعزّ.
ـــ إلى أخواتي الغاليات.
ـــ إلى كلّ منساندني ، ووقف بجنبي خلال مسيرتي في بحثي هذا.

أهدي هذا العمل

تونسي شعبان

إهــداء

اعتراف امنّيو تقديرا لهما:

إلـــى مـــن وضعـــني على طريـق الحياة، وجعلني رابطا لجأش ورعاني حتّى صر تكبيرا.

إلـــى مـــن وُضعت جنّة الرّحمان تحت قدميها

أمّـــي الغاليّة حفظها الله ورعاها.

إلـــى مـــن شقّبي في بحر العلم والقلم

إلـــى مـــن كان لها لفضل في بلوغي التعليم العالي

إلـــى صاحب السيرة العطرة والفكر المستنير

والدي الحبيب، أطال الله عمره.

إلـــى الأصدقاء، وإلـــى كــلّ مــن ساعدني وساندني في الوصول إلى هذا المستوى.

أُهْدي هَــذَا الْعَمَل

محمّد رابحي

شكر وعرفان

إنّ الحمد والشكر للّه الّذي وفّقنا لإتمام هذا البحث، وهو ذو الفضل العظيم.

كما نتقدّم بشكرنا وتقديرنا للأستاذ .د. سالم سعدون الّذي أشرف على إعداد هذه المذكّرة، ولم يبخل علينا بالتّوجيه، والنّصح والإرشاد.

والشّكر موصول أيضا إلى أعضاء لجنة المناقشة الكرام وبالخصوص الأستاذ. د. عيسى طيبي الّذي استفدنا من دروسه الكثير خلال سنتي الماستر.

دون أن ننسى الأستاذة المحترمة، السيدة :فتيحة حسين.

كما نتوجّه بالشكر لكلّ أساتذة قسم اللّغة والأدب العربي لجامعة آكلي محند اولحاج.

ونتقدّم بالشّكر أيضا إلى كاتب الرّواية السيّد عيسى تواتي الّذي تشرفنا بلقائه ، واستفدنا من محاورته.

دون أن ننسى زملاءنا في قطاع التربيّة والتعليم و خاصّة في الطّور الابتدائي.

مقدّمة

يعود ظهور الرّواية العربية إلى النّهضة السيّاسية والفكرية في العالم العربيّ، والّتي كان من أسباب قيامها احتكاك الشرق بالغرب، هذا الأخير الّذي عرف الرّواية مع النّهضة الأوروبية وتجسّد هذا الاحتكاك في حملة نابليون على مصر سنة 1798، وساعد في ذلك ظهور الترجمة في مختلف العلوم فضلا عن الأدب، والرّواية بشكل خاص.

وتعدّ رواية تامزقيدا رواية جزائريّة جديدة تضاف إلى الرصيد الأدبيّ للمكتبة العربيّة والجزائريّة بوجه الخصوص، باعتبارها تجربة فذّة لكاتب، وإن كان مغمورا، فإنّ أسلوبه كان متميّزا في رسم سيرته الذاتية وارتباطها بعائلته ومجتمعه في فترة هامّة ومرحلة حاسمة من تاريخ الجزائر أبدع خلالها في تصوير الأحداث بطريقة تجعل القارئ يعيش تجربة عيسى بكلّ ما فيها من مواقف تثير الأحاسيس وتحرك الوجدان.

ولهذا جاء عنوان مذكرتنا كالآتي"رواية تامزقيدا لعيسى تواتي: دراسة سوسيولوجية"، للحديث عن هذه التجربة الفنية، لهذه الشخصية وما دار حولها من أحداث، وما يرتبط بها من شخصيات .

ومن أجل الخوض في غمار هذا البحث نطرح الإشكالية الآتية:

- ما هي دوافع عيسى تواتي لكتابة هذه الرواية؟
- ما هي الأبعاد الاجتماعية في رواية تامزقيدا؟ وكيف ارتبطت الرواية الجزائريّة بالتحولات الاجتماعية؟

ولتتمّة هذا البحث رسمنا خطّة تعدّ بمثابة عمود فقريّ يحدّد شكل البحث، ويشدّ بنيانه إذْ قسّمنا البحث إلى مقدّمة، ومدخل وثلاثة فصول تطبيقيّة، وخاتمة أتبعناها بعدد من الملاحق وختمناه بقائمة للمصادر، وأهمّ المراجع التي اعتمدنا عليها.

فتطرقنا في المدخل إلى تقديم مفهوم أوليّ للرّواية كنوع أدبيّ مقترن بالواقع والمجتمع معا ما استدعى اعتماد المنهج السوسيولوجي في البحث، ثم حديث عن الرّواية العربيّة، فالجزائريّة

لننتقل للحديث عن تجربة الكاتب في هذه الرّواية، وندخل بعد ذلك متن البحث من باب الفصل الأوّل الّذي كان بعنوان :السّياق التاريخي للرّواية، فعمدنا إلى تقديم الرّواية من خلال قراءة في عنوانها، وأخرى في صورة الغلاف، وبيان علاقة ذلك بمحتوى الرّواية وظروف إنتاجها لننتقل إلى عنصر ثانٍ تحت عنوان:اشتغال التّاريخ، وضّحنا فيه حدود التّماس بين محتوى الرّواية والحدث التّاريخيّ والشّخصيات التاريخيّة، وأمّا العنصر الثالث والأخير في الفصل الأوّل فسميناه: تفاعل الرّواية مع الأجناس الأدبيّة الأخرى، وفيه سلّطنا الضّوء على ذَلك التّفاعل الموجود بين الرّواية والأجناس السرديّة الأخرى كالقصّة والأسطورة والحكاية الشعبيّة.

انتقلنا بعد هذا إلى فصل ثانٍ بعنوان: القضايا الاجتماعيّة في الرّواية، بدأناه بالظّاهرة الاستعماريّة باعتبارها سببا مباشرا لباقي القضايا، وعلى رأسها قضية الحرمان من التعليم وآثاره الوخيمة على الفرد والمجتمع، خاصّة على فئة الطّفولة التي هي ذخر الأمّة، وموضع الآمال والتّطلعات ولِما ستواجهه هذه الفئة في المستقبل من تحدّيات. ثم قضية الآفات الاجتماعية، تليها قضيتا الفقر والجوع كمحصّلة طبيعيّة للاستعمار.

أمّا الفصل الثّالث فكان تحت عنوان: البنية الفنيّة للرّواية، تناولنا فيه عنصر الشّخصيات باعتبارها المحرّك الرّئيسيّ للأحداث، وكذا عنصري المكان والزّمن اللّذان يشكّلان الإطار الفنيّ للرّواية، لننهي بحثنا بخاتمة فيها عصارة جهدنا، وزبدة تحليلنا لهذا العمل الفنّيّ، لنفتح من خلاله آفاقا جديدة لمزيد من الدّراسات والبحوث في المستقبل.

أسباب اختيارالموضوع:

هناك أسباب ذاتيّة، وأسباب موضوعيّة لاختيارنا هذا الموضوع، فمن الأسباب الذاتيّة نذكر:

1- ميولنا إلى هذا الجنس الأدبيّ المعاصر الّذي ينقل واقع المجتمع وقضاياه، وهموم أفراده، دون قيود، وبطريقة أدبيّة لغاية فنيّة واجتماعيّة.

2-لقد كان لكلينا نفس نوع الدراسة في مذكرة اللّيسانس، ويتعلق الأمر بالدّراسة السّوسيولوجيّة للرّواية، ممّا كان سيسهّل علينا إعداد البحث، ولما لا الاتجاه في هذا النّوع من الدراسات مستقبلا إن كان لنا نصيب في الدكتوراه.

3-كما أنّها رواية جزائريّة ذات صبغة تاريخيّة، ومرتبطة بالمنطقة الّتي نسكنها، ما سيساعدنا أكثر في فهم المواقف الاجتماعية، وطباع الشخصيات، وخصوصيات الأمكنة ما يعني فهما أكثر وتعمّقا أكبر في الدراسة.

ومن الأسباب الموضوعية الّتي شجعتنا على اختيار هذا الموضوع، نذكر ما يلي:

1- الرواية جديدة لم يتم التّطرق إليها من قبل، سلّطت الضّوء على واقع الطّفل الجزائريّ أثناء الثّورة التحريريّة،ومساهمته فيها، وكذا المعاناة الّتي عاشها في ظلّ الظروف الّتي فرضها الاستعمار الفرنسيّ،إضافة إلى ما يثيره عنوان الرّواية وصورة الغلاف من فضول لاكتشاف أحداثها.

2- رغبتنا الشخصيّة في الوصول ولو إلى جزء من الحقائق الّتي لم تنقلها لنا كتب التّاريخ، وإبراز جزء مخفيّ من الذّاكرة الجماعيّة، لأنّ الحديث عن الأطفال في تاريخ الثورات نادر جدا.

الدّراسات السّابقة :

تلعب الدّراسات السّابقة دورا مهمّا بالنّسبة للباحث، إذ توفّرله المعلومات النظريّة والشّواهد الواقعيّة والتاريخيّة، لتكون انطلاقة يبني على أساسها الباحث أفكاره، ويطرح توجهاته، ومن بين أهم الدّراسات السّابقة الّتي اعتمدنا عليها:

1- الرّواية المغربيّة ورؤية الواقع الاجتماعي ـ دراسة بنيويّة تكوينيّة ـ لحميد لحمداني، دار الثّقافة الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 1985.

2- الرواية واشتغال المتخيل التاريخي ـ سرقسطة للميلودي شغموم أنموذجا ـ سعيد سهمي، الأزمة الحديثة، العدد 13.

3- القضايا الاجتماعية في رواية " تلك المحبة " للحبيب السائح، مذكرة تخرج لشهادة الماستر إعداد الطالبتين باجدي عائشة وبومدين سميّة، تحت إشراف: د/ سعاد شابي، جامعة أحمد دراية أدرار، السنة الجامعية: 2015/2014.

المنهج المتّبع في الدّراسة:

إنّ الدراسة السّوسيولوجيّة لهذه الرّواية ذات الصّبغة التّاريخيّة اقتضى أنْ نعتمد في بحثنا على التّحليل وفق المنهج التّاريخي الّذي يقوم على تحليل الوقائع التّاريخيّة، والمنهج الوصفيّ باعتباره يتكامل مع المنهج التاريخيّ ولسهولة تطبيقه في حقل الدّراسات الاجتماعيّة، فهو يُسهّلُ فهم الظّاهرة الاجتماعيّة، ويعين على مسايرة تغيّراتها وتطوّراتها المختلفةلدّراسة نماذج الحياة الاجتماعيّة .

الصّعوبات:

لا يخلو أي بحث من عوائق وصعوبات تقف في طريق الباحث، فتؤثّر في مسار البحث.وأوّل صعوبة تُذكر: كانت في رسم الخطّة المناسبة لبحثنا، لِنَخْلُص بعد ذلك إلى دراسة تطبيقية محضة في ثلاثة فصول عوض فصل نظريٍّ، وفصل تطبيقيٍّ واحد، ممّا أعاق عمليّة الفرز بين ما هو نظريّ وما هو تطبيقيّ، حيث أنّه كلّما واجهتنا قضيّة استدعى ذلك العودة إلى تعريفها وأصول النظريّات الّتي تناولتها، وهذا ما يتسبب أحيانا في تشتت الأفكار وترتيبها، ممّا يصعب عمليّة مسك البحث حتّى النّهاية، يضاف إلى هذا ضيق الوقت الّذي لم يسعفنا لإعطاء الموضوع قدرا أكبر من التوسّع.

ومن الأمور الّتي ساعدتنا في بحثنا لقاؤنا المباشر مع المؤلّف عيسى تواتي، وصادف ذلك اللّقاء الشيّق الذكرى السّابعة والسبعين لمجازر الثامن (08) ماي 1945، حيث زرنا رفقته جبل

تامزقيدا، ووقفنا معه على تلك الأمكنة والشّواهد الّتي ذكرها في الرّواية، فلم يبخل علينا بالإجابة عن أسئلتنا بل راح يسترسل في الشّرح، والتّوضيح وكأنّه يعيد كتابة الرّواية من جديد.

مدخل

مدخل:

الرّواية هي تلك الثّورة الإبداعيّة التي طغت على ما عداها من الأجناس الأدبية، فهي النّوع الّذي أخذ يكثر لأنّه يترجم جوانب الأزمة الاجتماعية والسّياسيّة، وأمام هذه الخارطة الواسعة والفسيفساء المتنوعة الّتي كوّنت الرّواية في مختلف الزوايا، أصبح يطلق على هذا العصر الحديث عصر الرّواية. ولطالما كان الرّوائي يستمد موضوعاته من الحياة الواقعية، فهو بطبيعة الحال روائي واقعييسعى مرارا وتكرارا إلى تحقيق غرضه ولاسيما إذا كان هذاالغرض اجتماعيا، باعتبار الرّواية الاجتماعية هي الأكثر انغماسا في المجتمع، لا تستطيع أن تتجاهل المشاكل اليومية.

لم تحقق الرّواية باعتبارها جنسا أدبيا الاستقلال، و التميّز بوجودها وشكلها الخاص في الأدب الغربي والعربي إلاّ في هذا العصر الحديث، حيث ارتبط مصطلح الرّواية الّتي بدأت في أوروبا حاملة رسالة جديدة هي التّعبير عن روح العصر، والحديث عن خصائص الإنسان.

فبما أنّ الأدب يمثّل المجتمع والثّقافة السّائدة فيه، ويعتب وسيلة إعلامية مرتبطة بالرّأي العام، وأن الإبداع الأدبي يمثل حقلا فكريا للتّفاعل الإديولوجي، فإنّ الرّواية أكثر الأجناس الأدبيّة اجتماعا برصد تحرّكات الإنسان داخل المجتمع، ويتّضح ذلك من خلال نظرة الكاتب ووجوده في المجتمع، فسمة الرّواية تكمن في انعكاسها للواقع انطلاقا من الرّجوع إلى الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

تعدّدت زوايا النّظر إلى النّص الأدبي تبعا لتعدد المناهج النّقدية المفسرة للظاهرة الأدبيّة، فكل منهج له طريقته الخاصة في تحليل النّص الأدبي، والأخير يفرض طبيعة المنهج، فجاءت الدّراسة السّوسيولوجيّة لدراسة النصوص الأدبية على أساس التّفاعل المستمر بين الفرد والمجتمعوالأدب الجزائري شأنه شأن الآداب العالميّة انعكاس للواقع الاجتماعي المعاش له أثر عميق في تحوّلات وتغيير المسارات الّتي تصنع التجربة الإنسانية والإجتماعية، ولعل الغاية من هذا تكمن في الكشف عن العنف والإرهاب، إذ ساعدت المحنة التي عرفتها الجزائر إبّان الفترة الاستعماريّة على

إنتاج أدبها الخاص المتفرد برؤيته وخطابه، كما أنتجت وعيا نقديا متميزا فظهرت الرّواية كسجل للمجتمع البشري تطرح قضاياه.

إن اقتران الأدب بالواقع مسألة لا جدال فيها، حيث أن الدّراسات الأدبيّة اليوم خاصة الّتي تعنى بالنقد الأدبي أضحت تستعمل منهجا جديدا في دراسة الإنتاج الأدبي، هو المنهج الذي يسمى المنهج السوسيولوجي......

ومن هنا أقدمنا على القيام بهذه المحاولة الرّامية إلى تسليط الضّوء على رواية " تامزقيدا " الطفولة في ثورة التحرير الجزائرية، للكاتب عيسى تواتي لارتباطها بالواقع الاجتماعي والسّياسي للأفراد في إطار زماني ومكاني محددين، ومن هنا كانت لهذه القراءة أهميّة كبيرة في فهم وتفسير الأسباب التّاريخية والاجتماعيّة والإنسانيّة والنفسيّة الّتي دفعت أبطال الرّواية إلى سلوك منهج أوالإقدام على فعل معين، وحتى نتمكن من مقاربة أحداث الرّواية لابد من اعتماد مقاربة سوسيولوجية إذ هي القادرة على توجيهنا نحو الطريق الصحيح لفهمها، باعتبارها مقاربة تهتم باستخلاص دلالات ومقاصد الفاعلين(الشخصيات داخل الرواية) وذلك بالتركيز على بنية الدّلالات لإدراك الواقع الاجتماعي بما يحتويه من مشاكل وتناقضات وقيم ومعايير.

تأثّرت الرّواية الجزائريّة بالرّواية الغربّية والشّرقيّة، غير أنّها ما لبثت أن تجاوزت هذه العقبات وارتبطت بالواقع الاجتماعي والسّياسي وتداعياتهما، من المراحل الأولى للنشأة.

وقد انتقلت من الوعظية الإرشاديّة والتوجيه التربويّإلى الحسّ الثوري كمضمون واتجاه مقرون بمرحلة التأسيس اّلتي طغى فيها الموضوع كهدف أسمى؛ «**هذا التأثير نفسه الذي نراه في الرّواية**

الجزائريّة الحديثة، والّتي لم تكن بمعزل عن هذه الظروف وإن كانت تختلف قليلا عن مثيلاتها العربية»[1].

من الصّعب الحديث عن الأدب الجزائريّ دون التّصادم بإشكاليّة اللّغة، الّتي يعبّر بها هذا الأديب أو ذاك؛«**هكذا شاعت الظّروف الاستعمارية أن يكون هؤلاء الكتاب المبدعين بغير اللغة الأم، اللغة العربية، التي حاصرها الاستعمار الفرنسي»**[2]

ومن بين هؤلاء الكاتب عيسى تواتي، وهذا راجع إلى سياسة التّجهيل الّتي قام بها المستعمر الفرنسيّ، لطمس مقوّمات الشّعب الجزائري، فاتسمت الرّواية بالواقعيّة النّقدية لهموم المجتمع الجزائريّ في عاداته وتقاليده، وجوعه وصراعاته، ومعاناته وارتباطه بأرضه وكفاحه وأسلوب حياته.وانطلاقا من هذا الهدف، جاء هذا البحث ليسلط الضوء على رواية تامزقيداوبصورة خاصة في شطرها الثاني: **الطفولة في ثورة التّحرير الجزائريّة**، هذه الرّواية الّتي ترسم صورة للواقع الجزائري إبّان الاستعمار الفرنسي قبل وبعد اندلاع الثّورة التّحريرية الكبرى 1954 ذلك أنّها تناولت القضايا الاجتماعيّة الّتي كانت سائدة في تلك الفترة بأسلوب بسيط وواقعية كبيرة، كما جسّدت الرّواية صورة الطّفولة الجزائرية أو تلك الفئة المهمّشة من المجتمع.

تتضمن الرواية قسمات كثيرة من تجربة الكاتب عيسى تواتي في الجوانب الأساسية الّتي استند إليها، فطرح عدة قضايا، عاشها الكاتب في طفولته ومراهقته، وعانى منها الشّعب الجزائريّ عامّة في القرن العشرين، فالرّواية كانت عن خبرة واطلاع ومعايشة للواقع، إذ أنّ الكاتب ابن بيئته، وله تعلّق شديد بالوطن والوطنية، عيسى يحب الأرض لأنه يشعر بتعلّق عاطفيّ وارتباط قلبيّ بالمحل الذي ولد ونشأ وترعرع فيه، فيقول: «**هنا في هذه الجبال الشامخات لتامزقيدا حيث ولدت**

1 . محمد مصاريف، الرواية الجزائرية بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983، ص7.
2 . مومن سعد، الطعام والجوع في رواية الدار الكبيرة، دراسات وأبحاث، العدد07، رقم25، ص285.

يوم 03 ماي1945».[1]ويشعر بتعلق باطني نحو أهل ذلك المحلّ، ونحو جميع الّذين عايشهم وعاشرهم وألفهم في صغره وصباه فيعبر عن ذلك بقوله: «.**وهذه الريح الثائرة التي تستقبلني بقمّة جبال تامزقيدا بلمساتها الّتي أستشعرها وديّة هي كلّ ما تبقّى من وقت طفولتي...** ».[2]وتعلُّقه خاصة بأخيه رمضان الشّهيد الثّائر، فهو بعد خمسين سنة من الاستقلال ما زاليت ذكره في كل الأوقات على الرّغم من أنه لا يملك صورة عنه.

ساهم الكاتب في إبراز مشاهد لسلسلة من الأمراض والأوبئة، وأنواع عديدة من صور الظلم والبؤس وشقاء الأطفال في المناطق الريفيّة الجبليّة، وكذا الفقر والجوع اللّذان هما محصّلة للظاهرة الاستعماريّة، ورسم لنا مشاهد عن مختلف العلاقات الاجتماعيّة والعادات والتقاليد الّتي تميّز المناطق الجبليّة، والجزائر بصفة عامّة في فترة الاحتلال الفرنسيّ قبل وبعد اندلاع حرب التّحرير الكبرى وحتّى الاستقلال، فقر وبؤس وضيق مسكن، صورة الطّفولة في الجزائر في ظلّ سياسة استعماريّة سوداويّة بشعة، اقترف فيها المستعمر الغاشم أبشع الجرائم ضدّ أبناء الشّعب الجزائريّ الأبيّ، فقد وصف لنا تلك العمليات العسكريّة الدّامية الهمجيّة الّتي كان يشنها جنود المستعمر على القرى والمداشر الّتي كان يشوبها الفقر والجوع والحرمان، وجرائم قتل الأبرياء من رجال وشيوخ، دون رحمة، واغتصاب النّساء دون خجل أو شفقة، وحتى الحيوانات لم تسلم من أذاهم.

كانت الإدارة الاستعمارية تمارس البطش والقتل والتهجير والتعذيب بكل أنواعه، وتزجُّ بالجزائرّيين في السّجون، وتقوم بتجويعهم ومصادرة أخصب أراضيهم الفلاحيّة عنوة دون قوانين ودمّرت المداشر بكل برودة أعصاب و دون أي اعتبار وهجرت سكانها نحو المحتشدات.

---

1. عيسى تواتي، تامزقيدا، دار الكتاب، حي الآمال01 فيلا 27 خرايسية، الجزائر، الطبعة الأولى، 2019

2 . المرجع السآبق ، نفس الصفحة.

الْفَصْـلُ الْأَوَّل:

السّياق التّاريخيّ للرّواية

1- تقديم الرّواية.

2-اشتغال التّاريخ.

3-التّفاعل مع الأجناس الأدبيّة

تعتبر الروايّة من أكثر الأجناس الأدبيّة انفتاحا على التراث وعلى المرجعيات الثقافيّة المختلفة، وذلك لطبيعتها الحواريّة الّتي تجعلها قابلة لاحتواء سجلّات متعدّدة وخطابات متخّللة وأجناس أدبيّة وغير أدبيّة، ممّا يجعلها فضاء قابلا لاحتواء مشارب معرفيّة وثقافيّة متعدّدة ومتنوّعة فقد ارتبط هذا الجنس الأدبي السّردي منذ نشأته بمبدأ التّنوع راسما عالمه الخيالي من المرجعيات الثقافيّة للمجتمع الّذي نشأ فيه، والّذي يتّخذه الرّوائي منطلقا للتّعبير عن رهانات ورؤى جديدة.

تهدف هذه الدّراسة إلى البحث في أشكال وطرق اشتغال التّاريخ في رواية تامزقيدا، وتسعى إلى البحث في شعرية الأسلوب الّذي تقوم عليه، من خلال استقراء حدود التخييل التّاريخي والتخييل الإبداعي، وفق منهجيّة تتقصّى أشكال التّفاعل والتّداخل بين النّص والأشكال الأدبيّة والتراثيّة والثقافيّة التي تميّز هذه الرّواية.

1-تقديم الرواية:

وتم تقديم الرّواية من خلال أهم جانبين يُلفتان انتباه القارئ ويثيران اهتمامه بالكتاب وهما: العنوان، وصورة الغلاف، اللّذان يمثلان عتبة باب الكتاب كمرحلة أولى لبداية الإبحار في تفاصيله.

1-1-قراءة في العنوان:

إنّعنوان رواية تامزقيدا باعتباره عتبة للنّص لا يمهّد لقراءة بسيطة يسيرة، أو يعكس براءة على مستوى الكتابة فقط، بل يخلق توتّرا بين محفل الإنتاج ومحفل التّلقي، لغاية جماليّة هدفها الأساس هو دفع القارئ إلى التّعامل الحذر مع النّص، ومع المتخيّل. إلاّ أنّ رواية تامزقيدا استطاعت تجاوز الطابع التّعجيبي للعنوان لتعبّر من خلاله عن الفضاء الّذي تجري فيه أحداث الرواية، هذا الفضاء الّذي بقدر ما يُحيل على المكان بقدر ما يوحي للمتلقي برمزيّة تاريخيّة أساسيّة في المتخيّل الجزائريّ، وهي البيئة الرّيفية الجميلة ذات التضاريس الوعرة والحياة البسيطة التي كانت ملاذا

للمجاهدين، ومكانا مفضلا لهم لمواجهة العدوّ الفرنسي الّذي يصعب عليه نقل الجند والآليات إلى هذه المناطق.

ولعلّ أول ما يشدُّ القارئ عند النظر إلى الكتاب هو عبارة "تامزقيدا" المكتوبة ببنط كبير وبارز وباللّون الأحمر؛ فبالإضافة لكون اللون الأحمر مثيرا للانتباه، فإنّ هذا اللّون يحمل عادة دلالات مميزة ترتبط بالخلفيّة الفكريّة الاجتماعيّة، والثقافيّة للمجتمع الجزائريّ بوجه الخصوص، وسنذكر منها دلالتين نراهما تتناسبان مع مضمون الرواية:

أولاً: دلالة اللّهب(النّار):

وهي رمز وإشارة إلى لهيب الثّورة واشتعالها بهذه الجبال الشامخة على غرار باقي جبال الوطن، وما تقتضيه الثّورة من تضحيات وصبر، يشبه الصّبر على ألم الاحتراق بالنّار، نارُ ثورة التحرير المظفرة.

يقول الإمام **عبد الحميد بن باديس:**

هَذَا نِظَامُ حياتِنا * بالنُّورِ خُطَّ و باللّهب.**[1]

وفي هذا إشارة إلى الاتجاه التّحرري اّلذي سلكه الشّعب الجزائري من خلال ثورته الخالدة.

ثانياً: دلالة الدّم:

وهي نفس الدّلالة الرّمزية الّتي يحملها اللّون الأحمر في الرّاية الوطنية الجزائرية الّتي ترمز إلى دماء الشّهداء الطّاهرة، والّتي ارتوت بها تربة هذه الجبال؛ كما يظهر اللّون الأحمر في اسم المؤلف المكتوب بخطّ أقلّ سُمكا من اسم الجبل، ليعكس ارتباطه بهذا الجبل وانتمائه إليه وفيه

---

1 ـ د.عمار طالبي كتاب آثار ابن باديس، ج2، المجلد 2، الشركة الجزائرية لصاحبها الحاج عبد القادر بوداود، بن عزّون، الجزائر، ط1، 1967.ص 335.

أيضا إشارة إلى نصيب الكاتب وعائلته من شرف التّضحية والمساهمة بالدّم في سبيل أن تحيا الجزائر حرّة مستقلة، من خلال دماء رمضان، الأخ الأكبر لعيسى.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ الرّواية مترجمة من لغتها الأصليّة وهي اللّغة الفرنسيّة إلى اللّغة العربيّة بقلم الأستاذ عبد السّلام عزيزي، وقد جاءت في نسختها الفرنسية تحت عنوان:

La Temesguida Une enfance dans la guerre d'Algérie

ولأنّ دراستنا مختصة بالنّسخة العربيّة، فقد أوردنا هذه الإشارة من أجل تحقيق مقاربة في معنى العنوان حيث وردت كلمة "الطّفولة" معرّفة في النّسخة العربيّة بينما في النسخة الأصلية الفرنسية « طفولة...Une enfance"»جاءت بصيغة النّكرة مما يعطي للمصطلح معنىً أكثر شمولية، ويخرجه من دائرة التخصيص الّتي تتعلّق بطفولة عيسى تواتي فقط، إلى المعنى العام الّذي يشمل كلّ أطفال الجزائر في ذلك الوقت، «**فهذه الرّواية بقدر ما هي سيرة ذاتيّة لعيسى تواتي هي سيرة ذاتيّة لكلّ طفل جزائريّ** »[1]. خاصّة أولئك الذين عاشوا في الأرياف، فقد كانت معاناتهم مضاعفة.

يحيلنا العنوان على جبل تامزقيدا. وفي أصل تسمية الجبل بهذا الاسم يقول عيسى:« **أنّ القدامى يقولون أنّ تامزقيدا كان اسما لامرأة ثائرة حملت السّلاح ضدّ الغزات منذ زمن بعيد**»[2]، والجبل عادة يرمز إلى السّمو والارتفاع والعظمة والثّبات، ما يوحي بمجموعة من الدّلالات منها:

السّمو: سمو مبادئ وغايات ثورة التّحرير.

الارتفاع: ارتفاع وعلوّ منزلة الشهداء.

العظمة: عظمة الثورة التحريرية الجزائريّة.

---

1 . الأستاذ سالم سعدون، لقاء بكلية الآداب و اللغات، جامعة البويرة، الخميس 26 ماي 2022.

2 . الرواية ، ص17.

الثبات: ثبات الشعب الجزائريّ في مواجهة الاستعمار الفرنسيّ.

ويقع هذا الجبل جنوب العاصمة، على بعد حوالي أربعين كيلومترا، إذ كان له دور هامّ في ثورة التّحرير من خلال عبور كتائب المجاهدين من هناك، ودعم أهل المنطقة لهم، فقد«**كانت تامزقيدا تشكل منطقة جدّ استراتيجية، إذ كانت بالنسبة لمجاهدينا ممرا جبليا بين منطقة القبائل والقطاع العاصمي، بل وعبر طريق المديّة وصولا إلى غاية الونشريس وكانت الكتائب تتوالى نزولا عند أولاد صديق برجالها المائة وأحيانا أكثر**»[1]. كما شهدت المنطقة الكثير من العمليات والمعارك ضد جيش المحتل، إضافة إلى وجود أحد المستشفيات السّرية للولاية الرّابعة بالوادي أسفل جبل تامزقيدا.

إن الرّبط بين العنوان وسياق الحكاية، من خلال قراءة الفقرة الأولى منها، يؤكد أن هذا العنوان جاء مبينا لفضاء الأحداث، وهو فضاء جبل تامزقيدا، حيث «**تأتي الريح صديقتي القديمة كالعادة لتحييني بالكيفية التي تريدها...هذه الرّيح الثّائرة الّتي تستقبلني بقمّة جبال تامزقيدا** »[2]. الجبل الّذي أوى عيسى وشهد طفولته، حيث كان يرعى شياهه في سفوح هذا الجبل ليشهد بعد ذلك الكثير من الأحداث الّتي عاشها عيانا ولم يكن يفهمها، ومن ثم فإنّ العنوان يشير إلى هذه الطّفولة الّتي عاشها عيسى، وهي نموذج لكثير من الأطفال الجزائريّين في تلك الفترة التّاريخية خاصّة أولئك الّذين سكنوا الأرياف الّتي كانت الحاضنة الأولى للثورة والمجاهدين، مما جعل هذه المناطق تدفع الثّمن غاليا، فعانت في ظل الاستعمار من التّجويع والتّهجير والتّجهيل والقتل ...بكل وحشية ودون رحمة.

1 . الرواية، ص 98.

2 . الرّواية، ص14.

أمّا الشّطر الثّاني من العنوان فجاء بخطّ أسود أقلّ سُمكا ويأتي على سبيل التّخصيص والشّرح وإثارة الفضول تحت عبارة: **الطّفولة في ثورة التّحرير الجزائريّة** لتتناسب مع صورة الغلاف حيث تنقسم العبارة إلى شطرين:

الشّطر الأوّل: الّطفولة.

وهي مرحلة من أهمّ المراحل العمريّة في حياة الإنسان، تبدأ من يوم ميلاده وتنتهي بمرحلة البلوغ، وهي مرحلة تتميّز بالنّمو والتطور المستمر جسدا وعقلا، ويعيش الطّفل خلالها معتمدا على العائلة بداية من الوالدين، والأمّ بالدرجة الأولى، ثم باقي أفراد أسرته المحيطين به، وهي الجوانب التي تناولها عيسى في روايته من خلال تصوير طفولته، وحياة عائلته .

الشطر الثاني: ثورة التحريرية الجزائرية.

وهي مرحلة زمنيّة تمثل أهم حدثفي تاريخ الجزائر الحديث، هي ثورة من أعظم ثورات القرن العشرين ضدّ الاستعمار الفرنسيّ الغاشم، الذي أذاق الشّعب الويلات، وعاث في البلاد فسادا فقتل الملايين وجهّل شعبا، ودمّر حضارة ضاربة في عمق التاريخ؛ يروي لنا عيسى كيف عاش طفولته في خضمّ الثّورة على مدار سبع سنوات ونصف، وهي نموذج طفولة أغلب الجزائريّين في تلك المرحلة .

1-2- قراءة بصرية في صورة الغلاف:

يُعتبر الغلاف الخارجي لأيّ عمل إبداعيّ مكتوب، أوّل واجهة مفتوحة أمام القارئ، تهيئه لتلقي العمل الأدبيّ، فغلاف الكتاب إذا واجهة إشهاريّة وتقنيّة وفنيّة. ولذلك تكون عمليّة تصميم الغلاف خاضعة لنوع من الدّقة والعلميّة، تراعى فيها جملة من الشروط والمواصفات تتعلق أساسا بالمتلقّي وبالمحيط الّذي يصدر فيه هذا العمل الأدبيّ.

ولاشكّ أن العمل الرّوائيّ الّذي بين أيدينا"تامزقيدا" يكون قد خضع لمثل هذه العمليّة. ولنتبيّن ذلك سنحاول أن نقوم بقراءة بصريّة لأهمّ مكونات هذا الفضاء الخارجيّ، ثم إعطاء أهم الافتراضات أو المقاربات الدّلاليّة الموجودة بينه وبين ما يحمله النصّ الداخليّ من مضامين.

إنّ أوّل ما نلاحظه ونحن نقوم بقراءة بصريّة لواجهة الغلاف، هو تلك الصور باللّون الأبيض والأسود «Noir et Blanc» التي تحمل دلالة تشير إلى تاريخيّة الرّواية، هذا النموذج من الصور المحفوظة في العقل الباطني للفرد الجزائريّ والّتي ترتبط بتلك الأفلام والأشرطة الوثائقيّة حول الثّورة باللّون الأبيض والأسود، كما توجد بكثرة في كتب التّاريخ المدرسيّة وفي المتاحف وأماكن العرض.

ويضُمّ غلاف الرّواية ثلاث صور مدمجة، تمثل مشاهد معبّرة عن الطّفولة في مقابل الاستعمار وآثاره، حيث يحمل كل مشهد دلالات خاصّة لها علاقة بموضوع الرّواية، ومحتواها و أحداثها، ونجد ذكرها أو الإشارة إليها يتكرر خلال السّرد مثل: (الطّفولة، الاستعمار، الحرب المعاناة، الفقر، الخوف، الرّيف...) وهي بذلك تثير توقعات في ذهن القارئ، إذ كلّما تَدَرَّجَ من مقطع إلى مقطع آخر، إلاّ وتحققت توقعاته، تقول جوليا كريستيفا:«**هكذا يُدخِلُ التّكرار في كل مرّة بُعدا جديدا يسير بالقارئ أكثر فأكثر، نحو مُحتملٍ مُكتمل**».[1] ويمكن قراءة جزء من تلك الدلالات فيما يلي:

المشهد الأوّل:

وهو صورة بارزة لطفل في سنّ عيسى، بِشَعر مجعّد، وحاجبين مقطّبين كرمز للحزن والألم الداخليّ، وعينين بنظرات حزن وألم وخوف من مجهول، كما تظهر يده الخشنة المتّسخة

1 . جوليا كريستيفا، علم النّص، ترجمة: فريد الزاهي، عبد الجليل ناظم، دار طوبقال، الدار البيضاء، المغرب ط 2، 1997 ، ص 60.

كدلالة على العمل الشّاق من جهة، وانعدام النّظافة من جهة أخرى، وهي أوضاع تحدّث عنها عيسى في ثنايا روايته، وهي بهذا صورة أقرب إلى تمثيل شخصيّة الطفل عيسى بطل الرّواية.

المشهد الثّاني:

صورة ثلاثة أطفال، بنت وأخواها، تبدو أنها تكبرهما، من خلال حملها لأحدهما على ظهرها وتظهر إحدى قدميه الحافيتين كرمز للفقر والمعاناة، ويقف أمامها الآخر وكأنّه يحتمي بها لخوفه من مجهول، أومن أشخاص غرباء، ويرتدي طاقيّة(شاشيّة) كتلك الّتي كان يرتديها عيسى ولا تفارقه وكأنّها جزء من لحمه، يقول عيسى:«**فهذا كل ما تبقّى للرّاعي الصّغير المتمرد المنعزل بأولاد صدّيق**».[1]، وهناك خلفهم سياج من أسلاك شائكة، ما يعني أنهم داخل أحد المحتشدات الّتي كانت تقيمها فرنسا من أجل عزل الثّورة عن الشّعب، وخلفهم في الأفق العلم الفرنسيّ يرفرف كرمز للاستعمار.

المشهد الثّالث:

صورة لعدد كبير من الجنود على حافّة طريق جبليّ، يظهر من خلال لباسهم وعتادهم أنّهم جنود فرنسيّون، في مهمّة عسكريّة بإحدى الجبال، كمثال لتلك العمليّات ضدّ سكّان قرى جبل تامزقيدا، الّتي أفضت إحداها في الأخير إلى حرق الدّشرة وتدميرها وتشريد سكّانها، ليبقى ذلك المشهد عالقا في ذاكرة عيسى، باعتباره شكّل منعرجا تاريخيا في حياة عيسى وعائلته والمنطقة ككل وشاهدا على وحشية الاستعمار وجبروته.

وهذه المشاهد الثّلاث تصبُّ في قالب واحد، لتلخِّص معاناة الطّفل الجزائريّ من الآثار الوخيمة للاستعمار الفرنسيّ الوحشيّ.

---

1. الرواية، ص 134.

وقد أرفقنا بحثنا هذا في الملحق بصورة لغلاف الرّواية بنسختيها العربيّة والفرنسيّة ليمكن الإطلاع على هذه المقاربة.

2 ـ اشتغال التاريخ:

اعتمدت رواية تامزقيدا عددا من الآليات الناظمة لحضور التّاريخ، وإذا كان عمل الروائيّ غير عمل المؤرخ الملزم بالتّوثيق والتّدقيق وتنظيم الأحداث وفق تطور الزّمن، وكان الطّابع التّغريبي والأسطرة والتّعجيب والخيال حاضرا في هذه الرواية، فإنّ مؤشّرات عدّة تحدد آفاق المتخيّل التّاريخي، أبرزها إيراد الحدث التّاريخي، وتوظيف الشخصيّة التّاريخيّة.

2 ـ 1 ـ الرّواية والحدث التاريخيّ:

تنسج رواية تامزقيدا مادّتها على الذاكرة والّتاريخ، حيث انطلقت من معطيات حكائيّة تلتقي بالمرجعيات التاريخيّة كما أثبتها المؤرّخون، وأضْفت على أحداث تاريخيّة أخرى طابع الغرابة والتّعجيب، فهي تبسط نفوذها على مرحلة أساسيّة من تاريخ الجزائر، ويتعلق الأمر بمرحلة الثّورة التحريريّة الجزائريّة. وقد وقفت الرواية على مجموعة من الأحداث التّاريخية الّتي ميّزت المرحلة الّتي تحكي عنها بداية من سنة 1945، وهي السّنة الّتي شهدت ميلاد الكّاتب عيسى تواتي، إلى غاية تاريخ الاستقلال يوم5 جويلية 1962، حيث تتعدّد في هذه الرواية الأحداث والوقائع التاريخيّة، منها الإشارة في مطلع الرّواية لنهاية الحرب العالمية الثانية كأعظم حدث تاريخيّ في القرن العشرين وكذا مجازر الثّامن ماي من عام 1945 في حق الشّعب الجزائريّ الأعزل، وفي هذا يقول عيسى: « **هنا في هذه الجبال الشامخات لتامزقيدا حيث وُلدت يوم 3 ماي 1945، السّنة التي شهدت نهاية الحرب العالميّة الثانيّة ومجازر سطيف وقالمة وخرّاطة التي**

ارتكبها الاستعمار الفرنسيّ في حقّ الجزائريّين يوم 8 ماي والأيّام التي تلت» [1].كما أقدم الكاتب على ذكر عدد من المعارك الخالدة أبرزها على سبيل المثال لا الحصر: معركة بوزقزة 1958/1956، ومعركة الشطايبية 1958 التي يقول عنها عيسى: «**زادت حدة المعركة من جهة الشطايبية... فكانت تلك بداية لمعركة ضارية ستبقى مشتعلة النهار كلّه**»[2]. وهي معركة شهدت خسائر فادحة في صفوف جنود الاحتلال كما عرفت سقوط عدد من الشهداء في صفوف المجاهدين.

كما اعتمد الكاتب على تقنيّة الاسترجاع واستدعاء الذاكرة، حين قال: «**هنا حيث سقط أخي الأكبر رمضان شهيدا والسّلاح بيده سنة 1960 رفقة آخر مجاهدي الكتيبة الّتي كان ينتمي إليها من أجل تحرير الجزائر**».[3] فالكاتب استحضر مشهد استشهاد أخيه رمضان بمجرد مشاهدة ذلك المكان الذي استشهد فيه.

كما تقف الرّواية على حدث إعدام العربي بن مهيدي أحد أعظم رجال ثورة التحرير، «**يقول الرجل مُرشدُنا أنّ العربي بن مهيدي قد تم شنقه هنا على يد المصالح الخاصّة للجنرال مَاسُو Massu بعد اعتقاله سنة 1957 خلال معركة الجزائر.**»[4]. فالكاتب لا تمرّ عليه مناسبة إلا ذكر فيها جرائم الاستعمار ووحشيته.

تحدث الكاتب عن مناسبة عيد النّصر بتاريخ 19 مارس 1962 فيقول: « **كان جمع كبير يجلس من حول الراديو بالحي القصديري: تعلن إذاعة الجزائر الّتي كانت تبثّ برامجها من تونس بأنّه قد تم التّوقيع على وقف إطلاق النّار في هذا اليوم من تاريخ 19 مارس 1962.إنّها الذّكرى**

---

1 . الرواية، ص14.

2 . الرواية، ص 87.

3 . الرواية ، ص15.

4 . الرواية، ص142.

الوحيدة الّتي لازلت أحتفظ بها من هذا اليوم الكبير»[1]. وتمثل هذه المناسبة ذكرى خالدة في ذاكرة عيسى، على غرار كلّ الجزائريين.

وقد استطاعت الرّواية أن تقف، في سيّاق الحكي، على مواقف ومحطّات تاريخيّة عديدة ذات ارتباط بالذّاكرة الجماعيّة للجزائريّين عموما، فالتّاريخ يلتقي دائما بمؤشّرات أخرى يتّخذ فيها التّراثُ بكل مشاربه، مكانةً هامّة، وهكذا نجد أن الرّواية استحضرت مقوّمات أخرى ذات أبعاد سياسيّة وفكريّة ودينيّة وثقافيّة وصفت المرحلة الّتي تحكي عنها.

فسياسيا: استحضرت الحرب «**ضدّ الأصوليين الّذين حملوا السلاح ضدّ الدولة الجزائرية باسم الإسلام** »[2]. سنوات التّسعينات، والفتنة الّتي قامت بين أبناء البلد الوّاحد.

وعلى المستوى الفكري والعلمي، تقف الرّواية على كساد سوق العلم والثّقافة في هذه المرحلة بسبب انتشار الأميّة لدرجة أنّ سكّان الدّشرة لم يكن فيهم من يملك مصحفا، إلاّ والد عيسى فإذا كان هذا هو الحال مع المصحف، فماذا كان الحال مع الكتب العلميّة أو الثّقافية.

واجتماعيا صوّرت الرّواية تفاصيل المعاناة الاجتماعيّة الّتي عاشها سكّان المناطق الريفيّة بشكل خاصّ أثناء فترة الاستعمار الفرنسيّ، بسبب الظّلم الّذي كان يمارسه الاستعمار ضدّ الأهالي العزّل، ناهيك عن الفقر والجوع والأمراض والآفّات الاجتماعيّة الّتي يجلبها الاستعمار أينما حلّ وارتحل، وما نتج عن ذلك من عمليات القتل الجائر ووفايات بسبب الأوبئة وتفكّك أسريّ بسبب القهر والمطاردة اليوميّة للرّجال والشّباب الّذين يخلّفون وراءهم عائلاتهم تصارع الظروف القاهرة من أجل البقاء.

---

1. الرّواية، ص 159.

2 . الرواية ، ص 17.

2-2-الرّواية والشّخصيّة التاريخيّة:

وظّفت رواية تامزقيدا شخصيّات حقيقيّة كانت موجودة فعلا في الواقع وأبرز هذه الشّخصيات، شخصيّة السّارد، وهي نفسها شخصيّة البطل عيسى تواتي الّتي يدور ويتمحور حولها الحكي، بالإضافة إلى الشّخصيات اّلتي ساعدته في نقل قصته عبر هذه الرّواية.

فهذه الشّخصيات تؤدي وظائف رئيسية أو ثانوية، ومن«**ثم كان التشخيص هو محور التجربة الروائية**»[1].كشخصيّة البطل رمضان وشخصيّة على تفاحي .

وشخصيّة البطل عيسى تواتي هي شخصيّة تاريخيّة عاشت في المرحلة الّتي تحدثت عنها الرّواية، وهي مرحلة الثّورة التحريريّة الجزائريّة؛ فقد ولد في الثالث من شهر ماي عام 1945 وهو نفس الشّهر والعام الذي شهد تلك المجازر المروّعة في حق الشّعب الجزائريّ الأعزل الّذي خرج مطالبا فرنسا الوفاءَ بوعدها منحَ الاستقلال للشعب الجزائريّ إنْ هو ساعدها في حربها ضدّ الألمان فقد عاش فترة مهمّة من تاريخ الجزائر ليكون شاهدا على الاستعمار الفرنسيّ، وكذا قيام الثورة التحريريّة، ويكون شاهدا أيضا على أوّل يوم وصل فيه المجاهدون إلى دشرة أولاد صدّيق حيث يذكر عيسى أنّه وفي إحدى المرّات كان يقوم بإدخال الماعز إلى مخبئها، فسمع خطوات تصُرُّ الأرض المثلجة، فرأى «**ما يقرب العشرة رجال أتوا من الشرق يتّجهون نحونا في صف واحد وفي خطىً ثابتة، فأسرع رمضان دون قول كلمة إلى ملاقاتهم، رأيتهم يرتدون لباسا مثل لباس الدرك ويحملون سلاحا**»[2]. إنّها أولى كتائب المجاهدين الواصلة إلى الدّشرة، وبعد هذه التطورات في مسار الثورة وما نتج عنها من تصعيد في سياسة القمع ومداهمة القرى من طرف جيش الاستعمار

---

1 . روجر ألن، الرواية العربية، مقدمة تاريخية ونقدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الكويت، الطبعة الأولى ص131.

2. الرواية، ص 49.

الغاصبزادت معاناة الأهالي حدّةً إلى غاية عام1962حيث شهد عيسى ككل الجزائريّين تحرّر الجزائر من قيود الاستعمار ونيل الجزائر استقلالها.

وقد تعايشت هذه الشّخوص مع شخصيات وأعلام تاريخيّة ذكرت في خضمّ الحكي، وهي المؤطرة للرؤية، والحكاية، وللذّاكرة التّاريخيّة، فالرّواية حين تسترجع التّاريخ، تقوم بذلك عبر حكايات الشخصيات التاريخيّة،« **وإذ تروي الرّواية حكاياتهم فإنها لا تحكي حقيقة وجودهم وحسب، بل تتناول أيضا معنى هذا الوجود في وصفه حركة من الزّوال والحضور. فهي إذا تروي حقيقة المرويّ بحقيقة التأريخ، تطرح سؤالها على قدرة هذا المتخيّل حين يواجه الكون ولا محدودية زمنه** »[1].فقد وقفت الرّواية على شخصيّة رمضان الأخ الأكبر لعيسى الّذي يعتبر شخصيّة تاريخيّة شاركت في الثورة التحريريّة، والّذي مات فداءً للجزائر، لتنتقل إلى قصة عليّ تفاحي الّذي كان من أبرز المسبّلين الّذين خدموا الثورة، وذلك بخدمة المجاهدين المارّين على قرى جبل تامزقيدا، فهذا الأخير ضحّى بكلّ شيء، وبقي وفيّ الدشرة أولاد صدّيق حتّى بعد تدميرها وكان بقاؤه من أجل مساعدة الجنود المارّين من هناك. ثم تنتقل بنا الرواية لعدد من أهم قادة الثورة وهم خمسة رجال من أعظم قادة الثورة، كان وايتّجهون لحضور مؤتمر يتعلق بدراسة مسوّدة الاتّفاق الفرنسيّ الجزائريّ، لينزل خبر اعتقالهم كالصّاعة على الجزائريّين، « **إنّهم يعلنون توقيف أحمد بن بلّة ومحمّد بوضياف، وحسين آيت أحمد، ومصطفى الأشرف، ومحمّد خيضر، قادتنا الأساسيون** »[2]، بعدما كانوا على متن طائرة تقلّهم خارج الوطن، هؤلاء القادة «**الّذين قد قرّروا**

---

1 . العيد يمنى، الرواية العربية: المتخيل وبنيته الفنية، دار الفرابي، بيروت، الطبعة الأولى، 2011 ص 287.

2- الرواية، ص64.

دراسة مقرّرات مؤتمر الصّومام في مدريد- عاصمة إسبانيا -»[1] ، وقد علمت السلطات الفرنسيّة بهذا، فقامت باختطاف هذه الطّائرة .

وكذالك جرى الحديث عن شخصيّات في غاية الأهميّة، كأولئك الّذين كانوا قادة للولاية الرّابعة، حيث يقول عيسى أنّ :«**قبل هذه الفترة كانت الثورة متفوّقة على المستوى العسكريّ في الولاية الرّابعة الّتي كان يقودها قادة كبار أمثال عليّ خوجة، وسي لخضر وسي امحمّد الّذين كانوا يُلحقون بالجيش الفرنسيّ الخسائر الجسام».**[2] بالإضافة إلى هذه الشخصيّات هناك شخصيّة مهمّة أخرى جرى ذكرها في الرّواية هي شخصيّة سي بوسيف قائد كتيبة العثمانيّة الّتي انضمّ إليها رمضان فيما بعد، وكانت هذه الكتيبة تضمّ ما يقارب 150 مجاهدا، وكثيرا ما كانت تتنقل عبر جبال تامزقيدا، فقد كان لقائد هذه الكتيبة علاقة طيّبة مع سكّان دشرة أولاد صدّيق، ومع عيسى تواتي الشخصيّة الرئيسيّة، ومع عائلته.

2 ـ 3 ـ تفاعل الأجناس السرديّة في رواية تامزقيدا:

إذا كان الأدب بشكل عامّ ليس له موضوعا ثابتا، كما يقول محمد برادة، وإنّما «**يَنْوَجِدُ منتخوم الأجناس التعبيرية والخطابيّة ويتغذى من تفاعله مع النّصوص الأخرى ومن خوارزميات الذاكرة واللّاوعي»**[3]، فالعمل الروائيّ الجزائريّ المعاصر يتميّز بالعديد من الأعمال الإبداعيّة الّتي اتّسمت بتفاعل وتداخل النّصوص فيما بينها، ومع مختلف الأجناس الأدبية لتشكل فسيفساءَ من الاقتباسات المنحوتة من وحي المبدع، وكُلّها تحاكي المعاناة والواقع الجزائري المعاش خلال فترات عصيبة من الحياة.

---

1 . د. بن عتّو بلبروات، مجلة عصور الجديدة، عدد خاص بخمسينية الاستقلال الوطني، ربيع 1434هـ 2013 م العدد 9، ص 162.

2 . الرواية، 92.

3 . محمد برادة، فضاءات روائية، مطبعة دار المناهل، الرباط: وزارة الثقافة، الطبعة الأولى 2003، ص7.

فرواية تامزقيدا، لعيسى تواتي قد حكت ونقلت الواقع المعاش في فترة الثّورة التحريريّة بصورة واقعية، كونه عاشها وتحمّل ظروفها، ومن خلالها انفتح السرد على عديد الفنون الأدبيّة داخل النّص السرديّ الواحد، ليتجاوز به كلّ الأطر في صورة فنيّة تشكّل فسيفساء من الاقتباسات المنحوتة من وحي قريحته ، فقد احتوت هذه الرّواية على تداخل العديد من الأجناس الأدبيّة .

أ. **التفاعل مع السيرة الذاتية:**

إنّ الرّواية العربيّة الجديدة في عمومها تعتمد في حكيها على السّيرة الذاتيّة، ذل كأنّ السّارد غالبا ما يعتمد أسلوب السّيرة عبر استحضار الذّات في الحكي، «**ولعلّ أهمّ سؤال يفتحه هذا التّحول في الخطاب النصّي الرّوائيّ مع دخول ذات المؤلّف مساحة التّخييل هو معنى الخيال والتّخييل من جهة، ومفهوم الواقع والحقيقة من جهة ثانيّة**»[1]، فنجد أنّ السّارد في هذه الرّواية هو في حدّ ذاته شخصيّة تاريخيّة، فقد كان هو نفسه صوت الرّاوي الّذي أدّى وظيفة وصف ونقل مشاهد وجزء من حياته عبر هذه الرواية، فهو الشّخصية التّاريخيّة البطلة الّتي ظهرت تقريبا في جميع أطوار الرّواية، وكان يحكي عن حياة واقعيّة عاشها، وهو اليوم ينقل تفاصيلها إلينا في شكل عمل فنيٍّ أدبيّ. ومن هنا يمكننا القول أنّ البطل الروائي خرج عن كينونته الورقية ليعانق الواقع كشخصيّة حقيقيّة، حيث يقول في بداية الرّواية: «**إنّي في سنّ السّادسة أو السّابعة من عمري .لا نتجرأ أنا وأختي مسعودة أن نظهر أمام الضّيوف**»[2] .وقوله أيضا في نهاية الرواية : « **لا تشبه حياتي حياة علي بابا التي تُحكى في كتاب ألف ليلة وليلة**»[3]، فقد اعتمد أسلوب السّيرة انطلاقا من ضمير المتكلّم "أنا"، ومن خلال كون السّارد نفسه شخصيّة تاريخيّة تؤدّي وظيفة الحكي، واسترجاع معطيات تتعلق بالذّاكرة والتّاريخ، وهذا ما يجعل التّرابط حاصلا بين الخطاب

1 . زهور كرام، ذات المؤلف: من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي، مطبع الأمنية، الرباط،2013، ص 38.

2. الرواية، ص 25.

3.الرواية، ص178.

التاريخيّ الجمعيّ، وخطاب الذّات الحاكية، وهو استدعاء لحكي يُمكن معه تأكيد أنّ«**الكتابة الرّوائية تورطٌ تاريخيٌّ لذاتٍ كاتبةٍ تبحث عن أجوبة لأسئلة يطرحها الوعي الجمعيّ في صيرورته التاريخيّة**»[1]، فيصبح القارئ من خلاله بؤرة نظر الرّوائيّ، ويكونُ رهانُ الروائيّ ـ باعتباره مرسِلا ومرسلا إليه في الآن ذاته ـ هو الذّاكرة الجماعيّة، والوعي الجمعيّ.

ب ـ التفاعل مع الحكاية العجائبيّة:

وردت حكاية عجائبيّة واحدة في رواية تامزقيدا، وهي حكاية شخصيّة بن عمار، ذالك الرّجل المسنّ الّذي يشبه ظهره ظهر الثّور، والغريب فيهما جاء على لسانه حين يقول:«**لست في حالة جيّدة، ولا شيئ يُفرح ! ولم أرَ في الحياة إلاّ التعاسة والشقاء! عمّارة زوجتي عمياء وحماري أعمى وقطّي أيضا أعمى!**»[2]، ومن خلال هذه الكلمات الّتي يقولها ويُضحك بها سامعيه يظهر التّعجيب الحكائيّ الّذي يعتمد السّخرية والضّحك للتمويه والمراوغة.

جـ: التّفاعل مع الأسطورة:

اختلف الأدباء العرب في تعريف الأسطورة حيث أخذ كل واحد منهم منحًى خاصًّا به في تعريفها، ولكنّ ما اجتمع معظمهم عليه أنَّ الأسطورة هي مجموعة من القصص«**والحكايات التي توارثها الأبناء عن آبائهم جيلًا بعد جيل**»[3]. فهي غير معروفة المصدر. أي أنّ مؤلفها غالبًا ما

---

1 . محمد الدوهو، مدخل إلى خطاب الكتابة والذات في الرواية المغربية، آفاق، مجلة إتحاد كتاب المغرب الرباط: منشورات اتحاد كتاب المغرب، دجنبر، 2010، ص 63.

2 . الرواية، ص22.

3 . قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، الأسطورة توثيق حضاري، الطبعة الأولى دار كيوان، 2009. ص25، بتصرّف

يكون مجهولًا ـ«**تمتزج الخوارق مع الوقائع في الأسطورة**»[1]، ويكون الخيال هو سيّد الموقف فيها، فيشترك فيها العديد من الأبطال الخارقين الأقوياء والحيوانات الناطقة وغير ذلك.

ومن خلال عنوان الرّواية ـ "تامزقيدا"ـ تظهر محاولة الكاتب إعطاء الطّابع الأسطوريّ للرّواية، بغرض تعظيم ثورة الشّعب الجزائريّ وبطولاته والسّمو بهذه الثورة لدرجة الأسطورة في جانبها الّذي يقوم على بطولات شخصيّات خارقة، فأسطرتُ الحدث يجعله يبدوا خارقا للعادة وتُضفي عليه الأسطورة صيغة المعجزة أو خرق العادة حيث «**يقول القدامى أن تامزقيدا كان اسما لامرأة ثائرة حملت السّلاح ضد الغزاة منذ زمن بعيد** »[2]، ففي إحدى اللّيالي غادر الجنود الفرنسيون الذين كانوا يقيمون معسكرهم على قمة الجبل فجأة ، ودون سابق إنذار، تاركين خلفهم كلّ شيء على حاله فاعتقد سكّان الدّشرة أنّ تامزقيدا هي من قامت بطردهم من الجبل حيث «**قال كبار الدّشرة: ـ لقد تمكنت تامزقيدا من طردهم في النهاية**» [3]، ولا يزال هناك مَعْلَم صغير في قمة الجبل على شكل غرفة مبنيّة بالحجر،«**في الحقيقة كانت تلك بناية قديمة تشير إلى الطّابع المقدّس للجبل، فقد كان كبار شيوخ أولاد صدّيق يقولون أنّها تمثّل قبر تامزقيدا المرأة ذات السّر المشهورة. إنها بناية ذات شكل مستطيل بها فتحة من جهة الشّرق ونصفها مغروس في الأرض، ونساء الدشرة هنّ من يعتنين بها، ويتسللن داخلها حاملين أبناءهم المرضى ويشعلن الشّموع داخلها فيتضرّعن ثمّة ويسألن لهم الشّفاء** »[4]، ولم يكن هناك من أحد ليقنعهم أنّ ما يقومون به مخالف لعقيدة المسلمين وهو من البدع والخرافات التي سعت فرنسا جاهدة لترسيخها في معتقد الجزائريين، بالتوازي مع سياسة التجهيل، ومحاربة الدّين الإسلامي.

---

1 . المرجع السابق، ص25.

2 . الرواية ، ص 17.

3 . الرواية، ص 80.

4 . الرواية ، ص 70.

لقد حرصت الرّواية على إعطاء جبل تامزقيدا طابعا أسطوريا غرائبيا، عبر تصويره «**بأنّه جبل مقدس ذا روح ، فيتقربون ويتضرعون له بإشعال الشموع وتقديم القرابين وزيارة القبر من أجل استشفاء الأطفال أو من أجل زيادة المحاصيل**»[1]، وغير ذلك من الأمور والأشياء الّتي لا يستطيعون الحصول عليها.

د: التّفاعل مع الحكاية الشعبيّة :

لقد تفاعلت رواية تامزقيدا مع الحكايات الشعبيّة ، والّتي كانت دائما ما تقصّها الأمّ عائشة على الأطفال قبل النّوم، محاولة بذالك تنويم الصّغار في حالة عدم توفر الأكل، فقد كانت«**تجلس الأم بالقرب منا فتحكي لنا حكايات تأخذنا بها بعيدا إلى بلدان يلقى فيها الأشرار جزاءهم الّذي يستحقونه ويكافأُ فيها الطيّبون والفقراء. أمّا أنا فكنتُ أفضّل حكاية الصّندوق السّحري الّذي يوجد منغلقا داخله كلّ بهاء النّهار ورونقه ولا يستطيع أحد فتحهُ سوى أشعة الشّمس حين تطلع من الشرق**»[2]، فهذه الحكايات الشفاهية الّتي كانت تحكيها الأمّ والّتي يتمّ تناقلها مشافهة هي حكايات شعبيّة، قد أُشير إليها في مقاطع حكائيّة قصيرة في ثنايا الرّواية وجاءت في سياق الحديث عن المعاناة من الجوع، كحيلة من الأم لتنسي أولادها الجوع فيخلدون للنّوم، ومن بين كلّ هذه الحكيات كانت حكاية الصّندوق السّحري هي الّتي تنال إعجاب عيسى.

كما ورد ذكرٌ لحكايات ألف ليلة وليلة في معرض حديث المؤلّف في خاتمة الرّواية عن حكاية الكنز الّتي كانت حقيقية في قصّته، على عكس كونها خياليّة في قصص ألف ليلة

---

1 . عيسى تواتي، حوار يوم 08 ماي 2022، بجبل تامزقيدا ، الساعة 20: 14.

2 . الرواية ، ص 33.

وليلة، فيقول: « **لا تشبه حياتي حياة علي بابا الّتي تُحكى في كتاب" ألف ليلة وليلة»**.[1]، وهو تأكيد من المؤلِّف على واقعيّة الرّواية في مجملها.

1 . الرواية، ص 178.

الفصل الثاني

الأبعاد الاجتماعيّة في الرّواية

1-الظاهرة الاستعماريّة.

2-الحرمان من التّعليم.

3- الفقر.

4- الجوع.

5- الآفات الاجتماعية.

1. الظّاهرة الاستعماريّة:

لقد امتدت ظاهرة الاستعمار تاريخيا في جميع أنحاء العالم، وعبر جميع العصور، فهذه الظاهرة قديمة قدم وجود الإنسان فتبغي القبيلة أو الدّولة القويّة على الضّعيفة من أجل الاستيلاء على مواردها وطاقاتها، وكل ما تزخر به أراضي تلك الدول .

وقد حاول السّارد من خلال روايته هذه إحياء فترة تاريخيّة هامّة من تاريخ الجزائر، ليسلّط الضّوء على الثّورة التحريريّة الجزائريّة بالتّحديد، فيحاول السّارد من خلال هذا العمل أن يعطي نظرة وإطلالة عن تلك الفترة من منظور عيسى الطفل الصّغير، الّذي يحكي تفاصيل عاشها وشهدها عيانا، ولم يكتفِ بسرد الوقائع اليّومية لحياة سكان جبل تامزقيدا، ونقل أخبار المجاهدين وتنقلاتهم عبر الجبال فقط، بل راح يقترب من ممارسات المستعمر وهمجيته في البطش والتعدي على السكان وترويعهم وتهجيرهم، وحرق وقصف قراهم، فلم يسلم من هذا البطش بشر أو شجر أو حجر، وهذا ما جرى في قرية أولاد صدّيق بأعالي جبال تامزقيدا، حين قامت قوات الاحتلال الفرنسي بترحيل السّكان في أول الأمر تمهيدا لما ستقوم به من قصف، وحرق، وتدمير للقرى والمنازل، فقد «**أطلق الضابط أوامره يترجمها الحركيُّ على الفور:**

ـ يقول حضارات النّقيب أنّه يجب الرّحيل من هنا على الفور!» [1]، ودون تحديد أي وجهة معلومة يقصدها السّكان، بل حتّى أنّهم محرومون من دخول المحتشد الذي يعدّ بمثابة سجن واسع، وبعد جمع ما أمكن جمعه من منازلهم، ها هم سكان الدّشرة يخرجون إلى مصير مجهول، لتنقلب أمورهم رأسا على عقب، لقد فقدت العائلات كل شيء عدا حياتهم، وفي مساء ذلك اليوم توجّه العساكر صوب المنازل ليقوموا بحرقها وتدميرها لتُمحى من الوجود، ولم يكن الدافع من وراء هذا سوى علمهم أن هذه الدّشرة قد أوت المجاهدين، وقدّمت لهم الأكل والرعاية وهذا ما لم يتقبله عساكر

1 . الرواية، ص 115.

الاحتلال...! وإن كان هذا مجرد حجة واهية لأمر واقع لا محالة، تنفيذا للسياسة الاستعمارية القائمة على التدمير والتهجير وتفكيك المجتمعات والعائلات، وفي هذا السّياق يقول بيير بورديو «PIERRE BOURDIEU»- الّذي كان جنديا يؤدي الخدمة الوطنيّة بمنطقة القبائل والّذي أصبح فيما بعد عالم اجتماع:« **الوضعيّة الكولونيالية والحرب أخضعت المجتمع الجزائري إلى اجتثاثٍ ثقافيٍّ حقيقيّ، التّجمعات السكانيّة، الهجرة الريفيّة والوحشيّة الاستعماريّة عجّلت وأدّت إلى ترسّب وتعميق حركة التّفكيك الثّقافيّ، في نفس الوقت امتدت إلى مناطق كانت محميّة نسبيا لأنّها كانت بعيدة جزئيّا عن المساعي الاستعماريّة، وهي الكتل الجبليّة للمنطقة التليّة كونها تجربة كارثيّة لعمليّة جراحيّة اجتماعيّة، فقد قضت الحرب على حضارة لم يعد ممكنا التّحدث عنها الآن إلاّ فيالماضي**»[1]، زيادة على هذا فقد انتشرت ظاهرة اغتصاب العساكر الفرنسيون للنساء الجزائريات الطاهرات. فإذا تعرّضت إحداهنّ للاغتصاب فسيبقى ذلك وصمة عار في جبينها وجبين أهلها، فلا شرف لها في المجتمع، وقد كانت النساء تلطخن« **وجوههنّ بالسّواد ويمسكن بعضهن البعض بأيديهن ليشكلن دائرة يوجد بداخلها البنات الشابات ومن هن أصغر سنا** »[2]، فقد كانت هذه الحيلة من النّساء ناجعة فقد حصلت عملية اغتصاب واحدة على مستوى دشرة أولاد صديق، وفي هذا يقول عيسى:« **تم اغتصاب امرأة في دشرتنا أثناء هذا التّمشيط الأوّل. ولم أعلم بذلك إلى بعد سنوات طويل**»[3]، ولم تكن هذه سوى واحدة من كثير من الأفعال غير الأخلاقيّة للجيش الفرنسيّ في حق الشعب الجزائريّ، لتضاف إلى جرائم قتل الشعب الأعزل دون سابق إنذار ودون أسباب مقنعة للقيام بذلك، فكل من يعصي الأوامر يعتبر عاصّاً ومتمرداً يستحقّ أن يُقتل

---

[1] .Pierre bourdieu (sociologie de l'algerie) , que sais je ?, Editions Dahlab , 7eme éd, 1985, p123.

2 . الرواية، ص 72.

3 . الرواية، ص 73.

ومثال ذالك تصريح أحد العساكر الفرنسيّين حين قال:« **تمّ القضاء على أحد المتمرّدين كان يريد الفرار، ولا أضرار في صفوفنا** »[1]، ومن كان يقصده بالمتمرد هنا هو علي وناسي جار عيسى الّذي كان يهرب إلى الغابة فرارا من العساكر الفرنسيّين، ولما مرّ من مكان مكشوف التقطه أحد العساكر بمنظاره ليُحاصَر بعد ذلك ويُردى قتيلا بطلقة واحدة، وليس هذا سوى مثال للكثير من عمليّات القتل والاغتيال دون وجه حقّ. وبالرّغم من الفارق في القوّة بين المعسكرين فقد قامت الثّورة عبر جميع أقطار الوطن رافضة الاستعمار والاستبداد. وإن كان دور الرّجال خوض المعارك والتواجد في جبهات القتال، فلا يجب إغفال دور المرأة في ثورة التحرير ضدّ المستعمر، فقد كانت تسهر على إعداد الطعام للمجاهدين وما يصاحب ذلك من مشقة من بداية طحن القمح إلى غاية إنضاجه، دون إغفال خطر اكتشاف ذلك من طرف الجيش الفرنسي الّذي سيعرضهن لشتّى أنواع التّعذيب والإهانة، هذا إضافة إلى غسل ملابس المجاهدين وغيرها من الأعمال...

أمّا الأطفال فكان يتمحور دورهم في توصيل الرّسائل وشراء المؤونة، حيث يقول عيسى: «**وفي صباح أحد الأيّام سخّر عليٌّ حماري لحاجة يقضيها ... ليرسلني في مهمة لشراء 50 كيلو غراما من القمح** »[2]، وبغض النظر عن المغامرة الكبيرة لهذه العملية، يذكر عيسى أن الجنود الفرنسيّين اعترضوا طريقه في إحدى المرّات، وقاموا بإلحاق الأذى بحماره فقط من أجل الحصولعلى مشهد يثير ضحكهم، فما كان من عيسى إلاّ أن ردّ عليهم بالسبّ والشتم ولحسن الحظّ أنهم أخلوا سبيله.

كما عانى الجزائريّون من التّمييز العنصريّ رغم أنّهم هم أصحاب الأرض إلاّ أنّهم كانوا يلقون معاملة الحيوانات سواء من العساكر الفرنسيين أو من المعمرين الأروبيّين، يروي عيسى

1 . الرواية ، ص 74

2 . الرواية، ص102.

إحدى هذه المشاهد فيقول:« **البعض من سكّان أولاد صدّيق يقولون أنّه يُستحسنُ على الواحد منّا ألاّ ينسى نفسه بالتّجوال كثيرا بمركز المدينة** (مدينة تابلاط) **لأنّ الرّوميين لا يريدون رؤيتنا هناك فيطاردوننا ويركلوننا بأرجلهم ...**

ـ هيّا، أغرب من هنا...مالّذي جاء بك إلى هنا ! »[1].

لقد قدمت لنا رواية تامزقيدا صورة عن الاستعمار وأفعاله الشّنيعة في حقّ الشّعب الجزائريّ بالإضافة إلى ما خلفه من جوع وفقر، وانتشار الأمراض والأوبئة، وصورة للمقاومة الجزائريّة وما كان يعاني منه المجاهدون من جوع وتعب ومرض في الجبال، بالإضافة إلى عمليات التّعذيب والتّنكيل، والقتل بأبشع الطرق، وكثيرا ما كانت هذه الظروف تؤدّي بالجزائريّ إلى التّخلي عن أهله وعشيرته مرغما، فيعاني ألم الفراق وحرقة الاشتياق لبعده عنهم، أو ربما لا يعود إليهم إطلاقا.

ومنه فالرواية الجزائرية ارتطمت بمجريات وأحداث الثورة التحريرية فالرّوائيّ لم يقدم روايته كحدث تاريخيّ بل أنشأ نصّا سرديا يعالج فيه واقعا اجتماعيا للمجتمع الجزائريّ إبان الثّورة مقدما هذا الواقع انطلاقا من حياته، وحياة أسرته، وسكّان دشرته، والّتي يراها نموذجا لغالبية الشّعب الجزائريّ في فترة الثورة التحريريّة الجزائريّة.

2 . الحرمان من التّعليم:

هي ظاهرة اجتماعية سلبيّة تفشت في معظم أقطار الوطن العربيّ، ومختلف البلدان وبخاصة النامية منها، وبدرجات متفاوتة، وغياب التّعليم سمة من سمات التّخلف الاجتماعي وقد اعتبرت على أنها مشكلة تاريخية تعود إلى الاستعمار وهو ما لمسناه في رواية تامزقيدا، والتي تضمنت، وتحدث في بعض مقاطعها عن الأمية في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر فعيسى الطفل

1- الرّواية، .ص 66.

الصغير الذي حرم من التعليم، والذي يمثل غالبية أطفال الجزائر، كانت له رغبة في التعلم، ولكن الظروف لم تسمح له بذالك، وفي هذا يقول:« **كانت حالة الجزائر المضطربة تثير دائما العصيان والثورة في النفوس، لم أجلس أبدا على مقاعد الدراسة وتمنيت كثيرا لو أتيحت لي الفرصة للدخول إلى المدرسة ودراسة الجغرافيا**»[1] .

يُعدّ الاستعمار السبب الأوّل في انتشار هذه الظاهرة وتفشيها في المجتمع، فقد عمد إلى تخريب المدارس القرآنية وانتهاج سياسة الفرنسة. فنجد أنّ جذور هذه المشكلة « **تعود إلى بداية الاحتلال الفرنسي عام 1830م حيث بدأ الفرنسيّون وبمجرد أن وطأت أقدامهم أرض الجزائر في القضاء على مراكز التّعليم الّتي كانت قائمة في مختلف أنحاء البلاد، وفي مقابل تحطيمها النظام التّعليمي الّذي كان قائما في الجزائر لم تقدّم فرنسا التّعليم للجزائريّين إلاّ في حدود ضيّقة وذلك تماشيا مع سياستها التّعليميّة في البلاد، وهي بطبيعة الحال سياسة تجميلية أكثر منها تثقيفية، فقد كان الاستعمار حريصا عن أن لا يستفيد الجزائريّون من التعليم الفرنسي، لأنه كان يرى أن تعليمهم وتثقيفهم لو باللغة الفرنسية سوف يقوّي في نفوسهم روح اليقظة والثورة ويحملهم على المطالبة بالحريّة والاستقلال**»[2].

ولم يكن الجزائريّون راضون عن هذه الأوضاع، فكان كبار السن يقولون أنّ :«**الإدارة الاستعماريّة لم تهتم بنا إلى اليوم وأطفالنا لا يجدون مدارس يتعلّمون فيها بينما لا تبعد منطقتنا عن الجزائر العاصمة سوى 40 كيلو مترا ! يوجد مدرسة بالحوضين لكنّ مقاعدها مخصصة لأبناء حراس الغابات بسكامودي، كانت أهداف المستعمر واضحة وضوح الشمس، وأهمها طمس**

---

1 . الرواية ، ص 16 .

2 . أبو خلدون ساطع الحصري، أحاديث في التربية و الاجتماع، مركز دراسة الوحدة العربيّة، بيروت لبنان ط1 1884، ص88

الهويّة الجزائريّة»[1]، بدا ذلك من خلال هدم المدارس والجوامع ومنع تعليم القرآن، وكذلك بفرص التّدريس باللّغة الفرنسيّة

وبالإضافة للاستعمار نجد أنّ الفقر ساهم في تفشّي ظاهرة الأميّة فيقول الكاتب على لسان سكّان الدّشرة: « **نحن فقراءُ جدّا إلى درجة نعجز فيها حتى على إعادة تشغيل مدرستنا القرآنية الّتي بنيناها بأيدينا لتحفيظ الأطفال بعض سوَر القرآن**»فقد انشغل الأهل بأمور أخرى رأوها أهمّ من التّعليم، فالفقر وانخفاض المستوى المعيشي لا يقدّمان للطّفل ما يكفي من إمكانيات تشجّعهم على التّعليم.

3 ـ انتشار الأمراض والآفات الاجتماعيّة:

تطرّق الكاتب إلى وصف البيوت الّتي يقيم فيها السّكان بدشرة أولاد صدّيق بجبل تامزقيدا فلم تكن تتوفّر فيها ضروريات الحياة، فانتشار الأوساخ والأمراض، إضافة إلى نقص الأكل والعمل الشاقّ، كل هذه العوامل كانت تنهك أجسادهم ـ تحدث عيسى تواتي عن الفئات المحرومة الّتي لا يمكنها أن تحفل بمنازل فخمة أو حتّى بيوت مزرعة بسيطة يقول:«**لا يمكننا الحديث عن مزرعة لوصف المسكن المبنيّ من الطّين المجفف الّذي كنّا نعيش فيه معا...ويحيط الجزء المغطّى من مسكننا بفناء عام مكشوف حيث يتعايش الإنسان والحيوان معا، ويصل عدد الكائنات الحيّة إلى ما يقارب الخمسين دون حساب الدّجاج والأرانب»**.[2]

ولعدم توّفر أساسيات الحياة، عانى الشّعب الجزائريّ وخاصّة في المناطق الجبليّة من الأوبئة والأمراض المختلفة، الّتي كادت تبيده. فيذكر الكاتب مرض الطّاعون الّذي شكل أكبر آفة فتكت بسكان تامزقيدا والّذي اجتاحها سنة 1940، حين أصيب الجميع بإسهال حادّ.

1 . الرواية، ص 58.

2 . الرواية ، ص41.

وحتّى وإن كانت الأمراض بسيطة فالفقراء وسكان الجبال خاصة لا تتوفر عندهم مصاريف العلاج، يروي عيسى ذلك فيقول: «**كنّا نعلم أنّه كان يوجد وقتها أطباء ، ولكن لم نرهم أبدا**».[1]

فتتفاقم الأمراض وتودي بحياتهم جرّاء المضاعفات الخطيرة، وهذا ما أراد الكاتب وصفه حين تحدث عن الأطفال الّذين يموتون بكثرة بسبب غياب العلاج فقال:« **ولما يستلقي أحد منّا على الحصيرأو الغدير مضجعا، فيعني ذلك أنّه يستعد لمغادرة الحياة، كما أنّ نصف عدد الأطفال يموتون صغارا فالمقبرة الواقعة قرب الجامع تثبت ذلك**»[2]، ومن أبرز أسباب ذلك غياب التلقيح، فيذكر الكّاتب في الرواية أن اللّقاح الوحيد الذي أخذه هو ضد العدوى ومن الأسباب كذلك غياب شروط النظافة فيقول: «**لا نغتسل خلال فصل الشتاء، لكن في فصل الربيع تقوم والدتنا بغلي الماء في إناء معدني واسع، ثم نمرّ الواحد تلو الآخر للاستحمام**»[3]أضف إلى هذا الاحتكاك اليومي بالحيوانات التي كانت تعيش معهم في البيت.

كما أورد الكاتب في بداية الرواية إصابته بمرض الرّمد الّذي كاد أن يُفقده بصره، هذا المرض الّذي كان يصيب أكثريّة الأطفال القاطنين بالجبال فقال: «**كان الذّباب يدور مدويا بصوته باستمرار حول رأسي مجلوبا برائحة القيح، الّذي يسيل من عيناي...** »[4].هذا المرض الّذي ترتفع معدلات الإصابة به لدى الأطفال دون الخامسة خاصّة في المناطق الفقيرة، فالملابس والمناشف مسارات لنقل العدوى ، والذباب الماصّ أيضا من أسباب انتقال العدوى.

تلجأ أغلبيّة نساء الأرياف إلى التّداوي بالأعشاب والنّباتات الطبيعيّة التي توفرها لهنّ منطقتهنّ الجبليّة، على غرار الأمّ عائشة الّتي كانت على دراية باستعمال الأعشاب، حيث أنّ

---

1 . الرواية ص 46.

2. الرواية ، ص 25.

3 . المرجع السابق، ص37.

4 . الرواية، ص20

الكثير من قاطني الدّشرة، وما جاورها كانوا يقصدونها من أجل المداواة، وبالإضافة إلى الأعشاب والنباتات الطبيعية، فقد كان يتمّ استعمال الخلطات المنزليّة والمواد الموجودة في كل بيت، كالبنّ والقطران لعلاج الجروح، وحتّى الأطفال تعودوا على هذه التدابير والإسعافات في حالة الخطر، وهذا ما فعله الكاتب عندما وجد حماره مصابا بعد الحرائق الّتي أضرمها الجيش الفرنسيّ في دشرة أولاد صدّيق انتقاما منهم لتعاونهم مع المجاهدين، فالجبل أصبح منطقة محرّمة. فقال :«**قمت أذرّ الجرح بمسحوق البنّ مثلما رأيت جدّتي تفعل على رجل سي محفوظ لما جرح في رجله أثناء عمله**»[1]. فقد كانت هذه الطّرق التقليديّة في العلاج متوارثة أبا عن جدّ وأمّا في الحالات المستعصيّة فتلجأن إلى المرابطين، وهم شيوخ يُعتقدُ أنّ لهم قدرات على علاج المرض باستعمال الرّقية، أو زيارة أماكن مقدّسة حاملين معهن أبنائهنّ، فيشعلن الشّموع ويتضرّعن سائلين لهم الشفاء.

لم تتخلص عائلة عيسى من حياة البؤس بعد لجوئها إلى الجزائر العاصمة، ثم منطقة ريفي*[2] (مفتاح حاليا) فلم تتحسّن ظروف الإقامة والسكن الّذي كان عبارة عن كوخ من القصب والزّنك مثلهم مثل آلاف العائلات الجزائريّة الّتي هجرت من الجبال بسبب الحرب مشكّلة أحياءً قصديرية تعيش فيها ظروفا معيشية صعبة.

وبانقطاع السّبل بسبب القمع والظلم سادت المجتمع الجزائري بعض الآفات الاجتماعية التي تهتك بهم فيتحولون من الطّرق القانونية الشرعية إلى العنف، والمشاجرات، والنزاعات المباشرة وأغلب هذه المشاجرات تكون بسبب الأرض، التي تمثل جوهر الصّراع بين الإنسان وأخيه الإنسان.

كما ذكر الكاتب بعض الحالات التي تعاني من اضطرابات نفسية وحالات اكتئاب وانطواء على الذات، كنوع من الهروب من الواقع المرير وأوزار الحرب، كحال المسن بن عمار الذي يعيش مع

---

1 . المرجع السّابق، ص118.

2 * . مدينة صغيرة تقع على بعد 26 كلم جنوب الجزائر العاصمة، وهي إحدى بلديات ولاية البليدة عاصمة دائرة.

زوجته منعزلين في الوادي، وابن عم عيسى امحمد "المهبول" الذي لم يسلم من الطلقات النارية من طرف الجيش الفرنسي، وتعرض للتعذيب في محتشد فركيوة، يصف الكاتب ذلك قائلا: «**إن الجنود وضعوا له أسلاكا ذات مقابض في أذنيه وعلى أقدامه...وأنّه تألم كثيرا**»[1].

أمّـا الأطفال فقد أدّى بهم الحرمان من المدرسة إلى أن يقضوا جلّ أوقاتهم في رعي الأغنام وحراسة الماشيّة، ويعتبر ذلك عالمهم والمتنفّس لهم، فالجبل يتولى تربيتهم، لأنّه أصبح ملجأهم حيث يقول الطّفل عيسى: «**أقضي أوقاتي وأيامي في رعي معزاتي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس**»[2].

يروي لنا الطّفل عيسى أنّه لم يكن سهلا على النّساء الجزائريات أن يواجهن عمليّات الاغتصاب، فعند إطلاق عمليّات الإنذار وهروب الرّجال باتجاه الغابة تقوم النّساء بتلطيخ وجوههن بسواد الفحم من أجل حماية أنفسهنّ من الاغتصاب فقال: «**رأيت النّساء ملطّخة وجوههنّ بالسّواد وتمسكن بعضهن البعض بأيديهنّ، لتشكّلن دائرة يوجد بداخلها البنات الشابات ومن هنّ أصغر سنّا...**»[3].

فظاهرة الاغتصاب قديمة قدّم الحروب ذاتها، ودائما ما يشار في جرائم الحرب إلى استخدام القوّة للنيّل من الأهالي، واغتصاب النّساء الجزائريّات من طرف جنود الاحتلال كان يقابله الإفلات من العقاب، ما ساهم في تطبيع العنف ضد النّساء الجزائريّات، فكان مرتكب الجريمة يتلقّى فقط توبيخا شفويّا من قائده في أسوء الأحوال، وينفلت من المثول أمام المحكمة العسكريّة.

تتعامل غالبيّة المجتمعات مع الاغتصاب على أنّه عار يلصق بالضحيّة أكثر من الجاني وبالنسبة للجزائريّين فإنّ المرأة الّتي تغتصب سيلحقها العار هي وعائلتها، وهذا يعني رفضها

1 . الرواية، ص123.
2 . الرواية، ص 48.
3 . الرواية، ص 72.

ثمّ إقصاءها من المجتمع «**فالاغتصاب سلاح أقوى من القنبلة والرّصاصة، فبالرّصاصة على الأقل تموت ولكن إذا تعرضت إحداهن للاغتصاب فإنّها تظهر في المجتمع مثل الشخص الملعون...إنه موت حي**»[1].

أمّا في دشرة أولاد صدّيق فقد تم اغتصاب امرأة واحدة أثناء التّمشيط الأوّل ليسمع بها عيسى بعد سنوات طويلة، وهذا إن على شيء فإنما يدلّ على مدى حساسيّة الخوض بالحديث في هذه المواضيع، خاصّة أمام فئة الأطفال.

4 ـ الفقر:

تحفل الرّواية بالعديد من الأحداث والمشاكل الاجتماعيّة الّتي نسعى من خلال هذا البحث إلى تقديم تحليل سوسيولوجي لمظاهرها، ومن أبرزها الفقر، الّذي يُعدُّ نتيجة حتميّة للاستعمار الّذي يقوم على استلاب مقدّرات الشّعوب والاستيلاء على الأرض، وتشريد وقتل أصحابها، وتحويلهم من ملاك للأرض إلى عبيد في خدمة المعمّرين، ولقد خيّم الفقر بظلاله على جزء كبير من أحداث الرّواية، وقد ارتبطب معظم شخصياتها البارزة، وفي مقدمتها الطّفل عيسى الذّي يروي لنا قصّة طفولته بدشرة أولاد صدّيق بجبل تامزقيدا، بالتّفصيل، بداية من الفقر المدقع، فنجد الطّفل عيسى يروي لنا حالته التي يرثى لها، سواء في المأكل أو المشرب أو الملبس فيقول :«**أرتدي جلابيّة خرقة وشاشيّة حمراء لا تغادر رأسي أبدا، ولا أعرف وجودا لحذاءٍ أو سروال أو ثياب داخليّة...**»[2].

كانت الأسر الجزائرية تعيش مأساة حقيقيّة، تجلّت ظاهريّا في تدني المستوى المعيشي الّذي مسّ معظم السّكان الجزائريّين لمدّة طويلة ممّا زاد من تعاستهم وشقائهم، فالوظائف بسيطة لا توفر

---

1 . فريدة أحمد، الاغتصاب في الحروب: حين يقرر الجنود وصم النساء بالعار، شبكة الجزيرة

2 . الرواية، ص48.

القوت الكافي للعائلة، فرغم الشقاء والمعاناة طيلة النّهار إلاّ أن هذه الأعمال لم تكن توفر لهم الحدّ الأدنى من متطلبات الحياة، فيعيشون في بؤس دائم، يصف عيسى ذلك فيقول: «...**حقيقة أنّنا لم نكن في حاجة لمجابهة نظرات الآخرين، فكلنا في الهم سوى، فالفقر أمر طبيعيّ ولا عيب فيه**»[1]، فوضع الأسر والعائلات يختلف باختلاف رؤوس المواشي، الّتي تخضع إلى ضرائب سنويّة وهو ما كان يعرف باسم (المطلب)، « **ويتم ذلك عن طريق قائمة يحتفظ بها "شيخ الفرقة" التابع لمصلحة "القايد" والإدارة الفرنسيّة، والّتي تحمل كل أسماء الأشخاص الّذين يملكون مواشي**»[2].كلّهم يعيشون أوضاعا متقاربة جدا ويتعرّضون لنفس أنواع الاستغلال والاضطهاد والتّعسف فيصعب التّمييز بين من يعيش أفضل من الآخر فالفقير مثل الغنيّ يمشيان حافيان.

كانت عائلة الطّفل عيسى على غرار أغلب الأسر الجزائريّة، تعتمد على الأرض لكسب قوتها، ولأنّ الأراضي جافّة وغير خصبة وأغلبيتها صخريّة لا تصلح للفلاحة، فهي بخيلة لا تعطي إلاّ القليل ليسد به الأهالي رمقهم.

وإلى جانب العمل في الأرض، فالمورد الماليّ الوحيد لهم هو ما يحصلون عليه عن طريق المقايضة أو بيع بعض المنتجات المحلية كالبيض، حيث تقوم الأم عائشة: « **بصناعة بعض الأواني المنزليّة من الفخار...لمقايضتها مقابل الغذاء**»[3]. وهي بذلك نموذج لمثيلاتها من النّساء الجزائريّات ، حيث مازالت هذه الحرف في كثير من البيوت في عديد المناطق الجزائريّة حتّى يومنا هذا.

---

1 . الرواية ، ص33.

2 . الرواية ، ص 65.

3 . الرواية ، ص 33.

تدور أحداث الرّواية حول صراع الإنسان ضدّ الظّروف القاهرة، هذه الظّروف الّتي أملتها أسباب اجتماعية وسياسيّة في ظلّ الاستعمار، فكانت الأمّ عائشة تكدّ في العمل طيلة النّهار بكل ما أوتيت من قوة لكنّها لم تصل إلى الحياة الكريمة التي تطمح إليها هي وأبناؤها، فكانت تتألم كثيرا لرؤية أبنائها جياعا حفاة، فينشب شجار بينها وبين زوجها، فتذهب غضبانة عند أمها، يصوّر عيسى ذلك المشهد فيقول: «**كان والداي يتشاجران من حين إلى آخر...إنّ الفقر هو سبب شجارهما والاثنان لهما شخصية قوية**»[1].، وكلّ هذا بسبب الظروف الصّعبة التي تعيشها العائلة فالأمّ تجد نفسها في مواجهة جوع أبنائها، والأب غير قادر على توفير احتياجات العائلة من الغذاء والرّعاية، فكان يفرّ من هذا الواقع الأليم، الذي تراه الأمّ أنه تخلٍ عن المسؤولية وتوريط لها بتركها أمام الأمر الواقع، وليس بيدها حيلة.

هذه المظاهر لا تختلف كثيرا عمّا وصلت إليه الأوضاع بعد اندلاع الحرب، وإحراق الدشرة وإلحاق عدد من العائلات المتضرّرة بالمحتشدات، مما أدّى بهم إلى الهجرة بعيدا عن أراضيهم بحثا عن لقمة العيش، ولو بأبسط الوسائل وأقل الأشياء، وأبخس الأثمان، تحدث عيسى عن هذا فقال :«**والدي اتخذ قرارا بأن يذهب إلى العاصمة لاجئا أين أقام عند أحد الأقارب بحي بيلكور لربح قليل من المال بممارسة التجارة ببيع الخضر**»[2]. فقد شهدت هذه الفترة موجات كبيرة من الهجرات سواء من الأرياف إلى المدن، أو من كليهما إلى فرنسا وإلى البلدان المجاورة كتونس فمن خلال هذه الهجرات تشتّت العائلات والأطفال، وأقام هؤلاء في القرى والمداشر جيّاعا، ومرضى ومرهقين يقاومون قساوة الطّبيعة وقساوة المستعمر في آن واحد، فكيف للأطفال أن يستمتعوا بطفولتهم ويعيشوا حياة الأمن والاستقرار في كنف العائلة، وهم لا يحلمون إلاّ بتلبية حاجاتهم البيولوجيّة

1 . . الرواية ، ص38.

2 . الرواية، ص59.

البسيطة والعاجلة، والنجاة من الأخطار التي تحدّق بهم من كل جانب وفي كل حين، فقد «**بات الخوف من التنقل يعمّ الدّشرة، فلا أحد كان في مأمن من الطّلقات النّارية الّتي تأتي من الجنود الفرنسيّين، سواء أكان الواحد منّا يمشي باطمئنان على الطريق أو على الدّرب وبخاصّة ناحيّة الجبل للعمل في الحقول أو رعي الأغنام**».[1] وبذلك أضحى على عاتق النّساء القيام بالأشغال الفلاحيّة والزراعيّة من جهة ، ومسؤولية تدبير ورعاية البيت من جهة أخرى.

يصوّر لنا الطّفل عيسى الحياة "بريفي"(مفتاح حاليا) المنطقة التي لجأت إليها عائلته بعد تدمير وإحراق دشرة أولاد صديق بالطّائرات المروحية، حيث قام والده ببناء كوخ وسط العائلات الأخرى الفقيرة بالحي القصديري هناك، وقد كانت هذه الأحياء لا تتوفّر على أدنى ضروريّات الحياة كمياه الشّرب، ومجاري المياه، وقنوات الصّرف الصّحي، والكهرباء، فقد كانت عبارة عن أكواخ فوضوية سيّئة المنظر، بينما كان المعمرون الأوربيّون يسكنون في أحياء راقيّة ويملكون الأراضي الخصبة الشّاسعة. فكان معظم اللاّجئين يعملون بهذه الأراضي كعمّال موسميّين، تدفع لهم أجور زهيدة يقول في هذا:« **وحتى الأطفال يمكن استغلالهم، بحسب طبيعة العمل الواجب القيام به**»[2]. كما يصف عيسى ذلك بقوله: «**كنّا عند الفجر بما يفوق عددنا الستّين نساءً وأطفالا نصعد إلى خلف الشاحنة... يقودها جزائريّ، ليتجه بنا إلى الحقول لجمع عيدان الكرْم المتروكة على الأرض بعد عملية الزّب، وفي المساء تأتي الشاحنة لنقلنا مرّة ثانية إلى ديارنا**»[3].

من خلال كلّ ما سبق ذكره حول الظّاهرة الاستعماريّة فنلاحظ أنّه رغم انتقال عيسى وعائلته من الرّيف إلى المدينة إلا أنّ الظروف التي يفرضها الاستعمار بقيت قائمة، من سوء حال

---

1 . الرواية ، ص106.

2 . الرواية ص 135.

3 . الرواية، ص 135.

المسكن والحيّ القصديري، إلى قساوة ظروف العمل والاستغلال الّذي كان يتعرض له الجزائريّون وخاصّة الأطفال وتلك المعاملة السيّئة الّتي يلقاها الجزائري من المحتلّ وهو في وطنه.

5 ـ الجوع :

إذا كان الفقر محصّلة طبيعيّة للاستعمار فإن الجوع نتيجة مباشرة للفقر، وظاهرة الجوع من أبرز وأهمّ المشاكل الّتي تطرّقت إليها الرّواية بشكل بارز في بدايتها والّتي مثّلت الهاجس الأساسي للطّفل عيسى، وعائلته، فصورة الجوع واضحة جليّة، ومؤثّرة، فقد ألقى الجوع بظلاله على عائلة عيسى، على غرار كلّ الأسر الجزائريّة الّتي نال منها البؤس والجوع، مما شغلهم عن كثير من القضايا المهمّة كالحريّة والتعليم وفي هذا يقول عيسى: «**كنا نكتفي بما يتيسّر لنا من قوت، كنّا لا نعلم إذا كان لنا ماضٍ أم لا، ولا نفكّر في مصير الجزائر، ولا نتطلع للمستقبل كنّا مرتبطين بالأرض ومنشغلين أكثر بما نأكله**»[1]. ونرى الطّفل عيسى يروي بالتفصيل حاجتهم إلى القوت، فالجوع يصاحبهم كل يوم فتخور قواهم، وتنهد هاماتهم، وتصبح أجسامهم عرضة للأمراض، يذهبون إلى أعمالهم الشاقة مرغمين «**بدأ الجوع يُقطع أمعائي وأمعاء أخويّ الصغيرين عند منتصف وقت الزوال. وكانت أختنا مسعودة التي بلغت العاشرة من عمرها أكثر شجاعة منا، قالت أنّها لا تشعر بأيّ رغبة في الأكل، لكنّي كنت متأكدا أنّها كانت تضحي من أجلنا نحن الصّغار الثلاثة ولا تتحمّل النحافة الّتي كانت تشوّه أجسادنا**[2]». ففي حالة الجوع يحرق الجسم العضلات والبروتينات في الجسم وهذا ما يؤدّي إلى ضعف القوى الجسميّة وتراجعها، فمقابل الأعمال الشّاقة والبيئة القاسيّة هناك نقص كبير في التغذيةّ ظهرت نتيجته على أجساد الأطفال فقد كان الغذاء اليوميّ عبارة عن حبّات من التين المجفف مبللة بالماء وأحيانا بالحليب في الصباح وخبزا مغطوسا

---

1 . الرواية ، ص28.

2 . الرواية، ص 32.

في زيت الزيتون عند الضحى وفي المساء وجبة بالدقيق يقول في هذا: «**ولكن مرّة في الأسبوع على الأقل نرى وجه والدتنا ينقبض، فتقول لنا بابتسامة صنعتها :**

ـ هيّا نحكي حكاية يا أطفال !

فأفهم حينها أنّه ليس لدينا ما نأكله هذه الليلة »[1].، وهذا لم يكن لعبة، بل كان أمرا صعبا تلجأ إليه الأمّ مضطرّة مكرهة تتجرع في صمت مرارة ذلك مدّة أعوام دون أن تعلن ذلك لأبنائها، يصف عيسى ذلك فيقول:« **وكانت والدتي تتألّم كثيرا وهي ترى أبناءها جيّاعا حفاة ، فنحن سبب شجار وخلاف والدينا: سبعة بطون يجب إطعامها، خمسة ذكور وبنتي**» [2].هذه الوضعية المزريّة كثيرا ما كانت تتسبّب في شجار بين الوالدين، فتذهب الأمّ عائشة غضبانة إلى بيت أمّها، وكان ليحدث الطّلاق بين الوالدين لولا تعقل الأمّ بعد تدخّل الجدّة بختة الّتي كانت تقدّر صهرها كثيرا وتدعوا ابنتها لمزيد من الصّبر حتى يكبر أبناؤها ويساعدونها، يقول:« **فتعود إلى البيت الّذي لا تجد فيه ما تقدّمه لنا من طعام فترسلني إلى الجدّة الكريمة ثانيّة لتزوّدنا بشيء نأكله.**» [3] إنّ للجوع أبعادا عديدة فهو لا يؤثر على الفرد فقط مثلما كان مع الأبناء، بل يتعدى ذلك ليكون عبئا اجتماعيا، وأخلاقيا واقتصاديا على المجتمع ، مثلما كان الحال مع الأمّ ، والأب والجدّة

«**ويتسبب الجوع في تراجع النّمو ويعيق التطوّر المعرفيّ ، ويؤدّي إلى هجرات جماعيّة وإلى خلل كبير في البنى الاجتماعيّة** [4] .»

يؤدّي الجوع إلى صعوبة في التّركيز وزيادة احتمال الأصابة بالقلق والاكتآب، كما يؤدّي إلى ضعف جهاز المناعة ويزيد في احتمال تعرض الجسم للعدوى والأمراض، فقد أصيب عيسى

1 . الرّواية، ص32 ، 33.

2 . الرّواية، ص 38.

3 . الرواية ، ص 38.

4 – https://www.aljzeera.net/encyclopedia,11/06/2022,13:03.

بالرّمد في صغره ، وأصاب الطّاعون الدّشرة، والكثير من حالات الوفايات لدى الأطفال حديثي الولادة ، والأمّهات الحوامل.

الفصل الثّالث

الأبعاد الاجتماعيّة في الرّواية

1- الظاهرة الاستعماريّة.

2- الحرمان من التّعليم.

3- الآفات الاجتماعية.

4- الفقر.

5- الجوع.

1-الشخصيات:

تعتبر الشّخصيات الرّوائية مكونا مهما من مكونات الرّواية أو القصّة، فهي من تدور حولها الأحداث وترتبط بها ارتباطا وثيقا، وهي من تحمل المعاني، والأفكار، والقيم الإنسانية. فالشّخصيّة الروائية كائن ورقيّ بامتياز، وقد تكون شخصيات الرواية حقيقية تحمل نفس الأسماء والصفات وقد تكون شخصية من نسيج خيال المبدع تحمل صفات خارقة للعادة.

ويمكن تعريف الشّخصية الروائية بأنّها «**كائن موهوب بصفات بشرية وملتزم بأحداث بشرية**».[1]

كما تعد الشخصية الرّوائية عنصرا مهمّا من عناصر بناء الرّواية لأنّها تصور الواقع من خلال حركتها مع غيرها، وتعدّ العنصر الأساسي الّذي يضطلع بمهمّة الأفعال السّردية وتدفقها نحو نهايتها المحدّدة المرسومة في ذهن الكاتب.

وهي الموضوع المركزي والمهم مبدئيا للفن «**وإنّ جوهر العمل الرّوائي يقوم على خلق الشخصيات المتخيّلة، ولأنّ الشخصية في الرواية لا يمكن فصلها عن العالم الخيالي الّذي ينتمي إليه البشر والأشياء** »[2].

فمفهوم الشّخصية الروائيّة يختلف باختلاف الاتجاه الروائي الذي يتناول الحديث عنها فيعتبرها الواقعيّون التقليديّون شخصية من لحم ودم، لأنها شخصيّة نابعة من إيمانهم العميق بصورة محاكاة الواقع الإنساني المحيط بكل ما فيه ، محاكاة تقوم على المطابقة التامة.

---

1 جيرالد برنس، المصطلح السردي ـ معجم المصطلحات ـ تر: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003، ص42.

2 يوسف إسكندر، تقنيات السرد في عالم علي بدر الروائي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، 2009، ص 114.

«وتتنوع الشخصية الرّوائية بحسب أطوارها عبر العمل الروائي وهناك ضروب من الشخصيات: فنجد الشخصية المركزية والثانوية والخالية من الاعتبار، والشخصية المدورة والمسطحة والإيجابية والسّلبية والثابتة والنامية...»[1]

فالشخصيات تختلف أنواعها باختلاف دورها الذي تلعبه في الرّواية من شخصيات رئيسية تساهم في جميع الأحداث وربما تغير مسرى الأحداث، إلى شخصيات ثانوية يقل دورها عن الشخصيات الرئيسية، وشخصيات نامية تتطوّر وتلعب أدوارها مع توالي الأحداث وشخصيات ثابتة لا تتطور.

ويمكن تقسيم شخصيات الرواية إلى شخصيات رئيسيّة وشخضيات ثانوية من بين الشخصيات الرئيسية في رواية تامزقيدا نجد:

أ ـ شخصيات رئيسية:

1. شخصية عيسى تواتي:

إن الشّخصية الرّوائية لها تأثير على سلوك الفرد وتميزه عن غيره، وخاصّة في القضايا الاجتماعية، فلكل فرد شخصيته التي تتأثر بعوامل وظواهر اجتماعية، فهي تساعد في تشكيل شخصيّة الفرد وتكوينها، وشخصيّة عيسى تواتي هي شخصية الراوي نفسه، فقد نالت الحصّة الأكبر في أحداث رواية تامزقيدا، حيث تواجدتفي جميع أطوارها وأحداثها تقريبا، ويمكن اعتبارها شخصية نامية، فهذه شخصية تطورت مع الوقت ومع توالي الأحداث، ففي بادئ الأمر الطفل عيسى لم يكن يدرك التواريخ، حتى بلغ العشر سنوات من العمر، وفي هذا يقول:«**نحنفي سنة**

1 بورنوف رولان ، ريال أوئيليه، عالم الرواية، تر: نهاد التكريتي، دائرة الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1991، ص 144.

1955 وقد بلغت العاشرة، أصبحت اليوم مدركا للتواريخ خلافا لما كنت عليه في الماضي»[1].

وهذا يعني أنه قبل هذه السن كان يجهل أشياء كثيرة من بينها التواريخ .

ومنه يمكن اعتبار هذه الشخصية نامية ومتطورة بمرور الزمن، وطفولة هذا الطفل الصغير الذي ما فتئ يفتح عينه على الدنيا حتى وجدها منقلبة رأسا على عقب، فقر وجوع وأب هارب عن الديّار بسبب العساكر الفرنسيين، أخ التحق بالمجاهدين لتحرير الوطن، فيجد نفسه أمام مسؤولية كبيرة قبل أوانها يقول:«**وفي عمري عشر سنوات إذا، إلا أنّي كنت أبدو في نظر الآخرين في سن السابعة بسبب قصري ونحافة جسمي، وكان شعري معكفا مجعدا مثل معزاتي وأرتدي جلابة خرقة وشاشية حمراء لا تغادر رأسي أبدا ولا أعرف وجودا للحذاء أو السروال أو اللّباس الدّاخلي. »**[2]

فكل هذه الأوضاع كونت منه شخصية منفعلة تميل للسب والشتم، وفي هذا تقول الأم في وصف ابنها عيسى: «**عيسى مثل الديناميت السبّ والشتم جزء من شخصيته سيكبر مختلفا عن أبنائي الآخرين».**[3]

كما أن عيسى يقول عن نفسه: « **لم أكن لين الطبع»**[4].وكما قال العلامة ابن خلدون الإنسان ابن بيئته، فلعلّ البيئة القاسيّة الّتي كان يعيش فيها هي سبب هذه الخشونة في الطبع، « **فهذه الشّخصيّة مازالت انفعالية ميّالة لاستخدام الألفاظ النابيّة إلى يومنا هذا»**[5].ومرد ذلك إلى غياب دور المدرسة والجامع في تربيّة الأطفال وتقويم سوكهم وقد يكون بسب حالة اللاإستقرار الّتي فرضتها ظروف الاستعمار الّتيوولّدت ضغوطات أكبر من أن يتحمّلها كاهل طفل صغير.

---

1 ـ الرواية، ص 47.

2 ـ الرواية ، ص 48.

3 ـ الرّواية، ص 40

4 ـ الرواية ، ص 48.

5 . حوار مع الكاتب، يوم 2022/05/08، بأعالي تامزقيدا، الساعة 15:15.

وتعتبر شخصيّة عيسى نموذج طفولة لأغلب الأطفال الجزائريين في تلك الفترة، فترة الثورة التحريرية خاصة لقاطني الأرياف، واختيار الرّاوي لهذه المرحلة من حياته لم يكن عشوائيّا بل كان في المقام الأوّل يهدف إلى تجسيد حركة هذا المجتمع، مع التّركيز على فترة الطفولة، وذلك بالنّظر إلى الأحداث من منظار ذلك الطّفل الصّغير الّذي يعيش حياة الفقر والحرمان، مثله مثل الكثير من أقرانه، كما ترمز هذه الشّخصيّة في الرّواية إلى الصّبر والوعي الجمعي لفئة الأطفال الّتي كانت تعاني استلابا تاريخيّا لحقوقها الاجتماعيّة والّتي من أبرزها الحق في التعليم.

كما أنّ لهذه الشخصية علاقات مميزة تربطها ببعض شخصيات الرّواية، من أبرزها أخوه رمضان الّذي يعتبر من أكبر الدّوافع الّتي حفزت عيسى على كتابة هذه الرّواية الّتي سعى من خلالها إلى تخليد ذكرى أخيه، والّذى يرى فيه مثله الأعلى.

ودون أن ننسى علاقته بأخته مسعودة والّتى كانت دائما ما تنوب عنه في مسؤليّاته التي يتهرب منها وكذلك الأم عائشة فقد ربطه بها علاقة حب واحترام ووقار.

2-شخصية رمضان تواتي:

رمضان تواتي هو الأخ الأكبر لعيسى كاتب الرواية، وهو من الشخصيات المحورية الهامّة، فهذه الشّخصية الفنية شخصيّة حقيقيّة، أرادها المؤلف أن تمثل ما أراد تصويره من جهاد وتضحية من أجل استرجاع حرية الجزائر، اتسم الشاب رمضان بـ: «**ملامح وجه سمح...أرى رجلا مليئا بالحيوية ساطعا وجهه بالفخر والاعتزاز الغريزيين، أرى رجلاً ذا عينين عسليتين يحيط بهما سرٌّ ما وتبدوان تنظران باستمرار إلى المستقبل بل، وأرى حتى الشامات المطبوعة على منكبيه الواسعين وبشكل ملفت على قفا يديه حيث تبدو مثل الوشم.** »[1]

1 ـ الرواية ، ص 15.

ويعتبر رمضان أول من التحق بصفوف الجيش التحرير الوطني من دشرة أولاد صدّيق فرمضان وبتنقله المتكرر من أولاد صديق إلى الجزائر العاصمة حصل على وعي واكتسب ثقافة البحث عن التحرّر والاستقلال، عكس ما كان عليه أقرانه الذين لم يكونوا مدركين مفهوم الوطن وأين تقع فرنسا ولا يعلمون ماذا تريد، وما حقيقة الاستعمار، وفي هذا يقول رمضان: «**ستقوم الثورة قريبا سيعلن الجهاد والروميون هؤلاء سيخرجون من بلدنا**».[1] وهذا الكلام يعكس درجة الوعي لدى رمضان، وفكر الثورة والإيمان القوي بمبدأ التحرر والاستقلال .

فشخصيّة رمضان شخصيّة ثورية تحرريّة أبت السّكوت والرضوخ للمستعمر فسعى إلى الجهاد والتحق بكتيبة العثمانية ليشرف قرية أولاد صدّيق، وقد أصيب برصاصة على مستوى فخذه في اشتباك كتيبته مع الجيش الفرنسي بجبل بوزقزة، ولم يعد بإمكانه مواصلة القتال فاضطرّ للاختباء بسبب الجروح البليغة ، فلطالما كان ذلك البطل الذي يذود عن أفراد دشرته لكنه الآن عاجز عن ذلك بسبب الإصابة التي تعرض لها ، فأحس أنه«**لم يعد ذلك المقاتل الذي ما فتئ يشرف دشرته التي ولد فيها أمام رفاقه في السلاح**»[2] الذين هم في أمس الحاجة إليه. ففي ظلّ الظّروف القاسيّة والمعاناة تكونت شخصية بطل من أبطال الجزائر تميّزت بالسّماحة والموّدة مع العائلة، والشّراسة والقوة ضد الاحتلال، ليحمل على عاتقه واجب تشريف الدّشرة ، وتشريف الجزائر بصفة عامّة، فقد رأى عيسى في أخيه رمضان بطلا بين أقرانه بصفة لم تفارقه منذ نال البطولة في منافسة القراش* في مكان مخصّص لذلك قريبا من قمة جبل تامزقيدا، ليصبح مجاهدا وفي الوطنه، وضحى بنفسه من أجل حرية وشرف بلده، بعدما غادر الديار ليتدرب في تونس ويواجه

---

1. المصدر نفسه، ص51..
2. الرّواية ،ص 18.

*منافسة رياضية بين المداشر تشبه المصارعة الرومانية حيث يخرج إلى الميدان مصارع من دشرة ما ويبدأ بالدوران في ميدان المصارعة إلى أن يخرج إليه منافس من دشرة أخرى ، فيبدأ النزال وفق قوانين محددة.

المستعمر بكل ضراوة، فنجد أنّ هذه الشّخصية تطوّرت وساهمت في تغيير مجرى أحداث الرّواية، وقد أصيب رمضان في إحدى الاشتباكات يصور عيسى ذلك فيقول على لسان رمضان: «**نعم لقد أصيب بالفعل أثناء اشتباك بالسّلاح... يمكننا رؤية أثر الفتحة الصّغيرة الّتى أحدثتها الرّصاصة على مستوى فخذه**»[1].هذه الحادثة التي خلقت تخوفا دائما لدى الأسرة ، وخاصة لدى الأم التى لطالما بقي بالها مشغولا به بعد مغادرتهم القرية.

وقد وجدت شخصية رمضان لترمز إلى الفئة الواعية التحرّرية الّتي أبت إلّا أن تواجه بالرغم من فارق القوة، وسعت لرفع الرّاية الوطنيّة، وضحّت بالنّفس والنفّيس فداء للجزائر.

شخصية الأب (أحمد):

ظهرت شخصيّة أب عيسى بتلك الصّورة النمطيّة للأب في ذلك الوقت، حيث لم تخرج عمّا هو معهود في الرّواية العربيّة، وقد كان يحظى باحترام وحبّ كبير من طرف أبناء الدّشرة ومن طرف قايد بوكرام أيضا، كما كانت له علاقة وطيدة بشخص فرنسي كان اسمه "ميمي" لقد كان« **يحظى باحترام كبير وهيبة لدى سكان الدّشرة لشخصيّته المميزة ولكونه صديقا لقايد بوكرام لكن صداقته مع الروميين تسبّب له مشكلة**»[2]. ويقصد بالرومين هنا الأروبيون نسبة إلى أجداد هم الرّومان الذين استعمروا هذه الأرض واستعبدوا أهلها لعدة قرون، وقد تعرف أحمد على "ميمي" عن طريق الصّيد، فقد كان يكن لهذه الهواية حبا كبيرا، كما أنّه كان ماهرا فيها وعن طريق الصيد بنى علاقة وطيدة مع قايد بوكرام ،الآمر الناهي في المنطقة، وذلك بتقديم بعض الطرائد مما كان يصطاده كهدية للقايد.

1 . الرواية، ص 18.

2 . الرّواية، ص 27.

وقد كان للأب مواقف مشرفة من خلال تدخلات كثيرة لفك النزاعات، أو للتوسط في إيجاد الحلول لمشكلة ما، ومثال ذلك تدخله لفض نزاع حدث بين صهره سليمان وقائد بوكرام، بسبب «**رفض سليمان التنقل إلى عند القائد لتقبيل جبهته مثلما يقوم به الجميع في العادة، فيأمر القايد رجاله بالمسك به وإشباعه ضربا بالعصا وبالبصدفة كان الأبموجودا ببيت القايد فراح يتدخل محاولا فك الخناق ، ومن شدّة التجاذبات تمزّق قميصه، وهذا لم يمنع سليمان من تلقى بعض الضربات بالهراوة. وبعد لحظات عاد الهدوء فتقدم القايد بالاعتذار لدى والدي وأعطاه الحق في الدّفاع عن صهره المتغطرس ويعده متكرما بأن يعوّضه ثمن قميصه الذّي مُزق.** »[1]

مثل هذه التّدخلات كثيرة من هذه الشخصيّة، وذلك للمنزلة التّي وصل إليها عند النّاس فقد كانت شخصيّة مؤثرة ذات مواقف اتجاه الأحداث الاجتماعية الحاصلة، ولكن سرعان ما غادر الدّشرة هاربا من بطش المستعمر، من جبال تامزقيدا إلى حي بيلكور، بمقابل الاحترام والتّقدير والمكانة المرموقة بين النّاس من خلال تدخلاته الموفقة، لم يكن يحظى بذلك في البيت، فقد جرى على لسان عيسى بعد لقائنا به أنه «**كان أبا يتعامل مع الأمور المنزلية بنوع من اللامبالاة**»[2] وفي هذا يقول عيسى: «**لا يتدخل والدي في تربيتنا، فتلك مهمة تقوم بها والدتي...** »[3]

بالإضافة إلى تربية الأولاد التي كان يتهرب منها كان لا يعير الاهتمام الكبير للأولاد هل أكلوا، هل شربوا حيث كان يوجه جلّ اهتمامه إلى هوايته المفضلة، ألا وهي الصيد«**ففي الصباح الباكر يحمل بندقيته للصيد على كتفه**».[4]لقد كانت البندقية لا تفارقه في أغلب الأحيان، ولعلّ تعلّقه واهتمامه بهذه الهواية هو الطّبيعة الّتي كان يعيش فيها، والّتي كانت تعجّ بالطرائد، التي

---

1 . الرواية، ص 31.

2 . حوار مع الكاتب، يوم 08 ماي 2022، بجبل تامزقيدا، الساعة ،12:15.

3 . الرواية، ص 37.

4 . الرواية، ص 21.

تشكل أحد مصادر الطعام للعائلة من خلال بيعها بالعاصمة، وشراء بعض الحاجيات للبيت، فهذه الشّخصيّة هي نتاج تفاعل مستمر مع البيئة.

شخصية الأم عائشة:

من داخل جبال تامزقيدا يرسم لنا عيسى تواتي صورة أمّه عائشة فيقول:" **أمّا والدتي فقد كانت تلبس جلابّة تشدها بنطاق طويل مصنوع من الصّوف وتضع على كتفيها شالا ذا لون ولم أرها أبدا ترتدي خمارا، إلاّ أنّها كانت تخفي شعرها بملحفة من قماش ذي ألوان فاتحة وتحمل أبناءها الرّضع على ظهرها بواسطة قطعة مربعة من قماش، تشدها من أطرافها إلى صدرها من خلاف..**"[1]، فقد كانت امرأة بسيطة ترتدي لباسا بسيطا مثل باقي نساء الدشرة وأمام الحالة الاجتماعيّة الّتي كانت تعيشها، استطاعت أن تتعلم عدة حرف من أجل تأمين القدر الأدنى من قوت أبنائها الصّغار، فكانت تقوم بنسج الزّرابي وصناعة الأواني الفخاريّة لتبيعها، لقد كانت أما لسبعة أبناء، غادر عنها زوجها هاربا من المستعمر تاركا لها مسؤوليّة رعاية الأبناء في ظروف مزريّة، وتحت خطّ الفقر، تكابد ليل نهار، داخل البيت وخارجه في سبيل توفير لقمة العيش لأبنائها، ليلتحق بعد مدّة ابنها البكر(رمضان) بالمجاهدين، ثم يذهب ابنها سعيد عند والده بالعاصمة، كما تزوّجت إحدى بناتها، وتوفيت وهي تحمل في بطنها جنينها، ليبقى معها أربعة أبناء تقوم برعايتهم وسط الجبال، وتمرّ بمعاناة كبيرة هي وصغارها، جرّاء نقص الغذاء الّذي شكّل لها هاجسا يقض مضاجعها، فقد كانت وما بيدها حيلة، تضطرت للكذب على أبنائها مرارا من أجل إسكاتهم فتخادعهم بجلسات الحكي حتى ينسوا جوعهم، هذه الجلسات التي كانت تؤلمها كثيرا، وتسّبب لها الشّعور بالذّنب، فكانت تجلس«**بالقريمنّا، فتحكي لنا حكايات تأخذنا بها بعيدا إلى بلدان يلقى فيها الأشرار جزاءهم الّذي يستحقونه ويكافؤ فيها الطّيّبون والفقراء...وما تكاد الأمّ**

1 . الرواية ، ص 36 ، 37.

الحنون تصل إلى نهاية حكايتها حتى ترانا غرقنا في النّوم ببطون فارغة.. »[1]إنّها إحدى حيل الأم عائشة ومثيلاتها في ذلك الكثيرات من الأمّهات الجزائريات في تلك الفتّرة.

وقد كان للأمّ الجزائريّة بصفة عامّة، وعائشة أمّ عيسى بصفة خاصّة أدوارا بطوليّة في مساندة الثّورة، فقد سعت لمساندة ومؤازرة الرّجل أثناء الثّورة من خلال إعداد الطّعام للمجاهدين وغسل ملابسهم«**فلما ننهض صباحا نجد والدتنا وقد سبقتنا للعمل. أراها وأختي مسعودة تبذلان الجهد الكبير في غسل الألبسة العسكريّة وترقيعها، وتقضيان معظم وقتهما بين الرّعي ونار الحفرة...»** [2]، فرغم الظّروف الاجتماعيّة الصّعبة الّتي كانت تعيشها مع عائلتها، إلاّ أنّها تركت بصمتها في الثّورة وذلك حسب استطاعتها، فكانت ترى في الطّعام الّذي تعدُّه، وتقدمه سَّر قوة للمجاهدين، فتقول، وهي ترى قبالتها رجالا من إحدى كتائب المجاهدين يجرون صعودا من الوادي نحو القمم: «**إنّ الأكل يزيدهم قوّة إلى قوّتهم... انظروا كيف يطوون المنحدر طيّا»!**[3] وقد كانت عائشة تكن حبا كبيرا لكتائب المجاهدين، وتنتظر قدومهم بفارغ الصبر، فرمضان ابنها البكر ينضوي تحت لواء أحد هذه الكتائب، ولطالما كانت تسأل عن الوفود القادمة إلى دشرة أولاد صديق.

وجدت شخصيّة عائشة في الرّواية لترمز إلى شجاعة المرأة الجزائريّة وكفاحها وصلابتها فعائشة حتى بعد تدمير القريّة، أرادت إعمارها من جديد، فلطالما كانت الأمُّ مبعثا للحياة تنبعث من رحمها الأجيال لتستمر الحياة، وغايتها من ذلك لقاء ابنها رمضان، واستقبال الكتائب الّتي تمرّ بالجبل، فقد ربطتها علاقة وطيدة بابنها الذي تفتخر به، وتراه بطلا في عينها.

---

1 . الرواية، ص 33.

2 . الرواية، ص 103.

3 . الرواية، ص 105.

وتعتبر هذه الشخصية شخصيّة ناميّة متطوّرة شاركت في العديد من الأحداث وهي شخصية تأثرت بالأحداث من جهة، وأثرت في الأحداث من جهة أخرى.

شخصيّة علي تفاحي:

يعتبر هذا الرّجل شخصيّة محوريّة، لمشاركته في الكثير من الأحداث، وبرز دوره بعد اختياره من قبل المجاهدين ليكون مسؤولا عن دشرته وممثلها، يصف عيسى ذلك بقوله: « **كان ذا وسامة وتبدو على وجهه ملامح الطيبة والسماحة** »[1]، وكان على علاقة جيدة برمضان قبل التحاق هذا الأخير بالثّورة، «**فقد كان علي تفاحي الصّديق العزيز لرمضان**»[2]وقد يكون ذلك أحد أسباب اختياره ليكون مسؤولا عن الدّشرة، فأكيد أن رمضان يعرف بأنّه كفؤٌ، ومحلٌ ثقة.

كان عليّ شابا كغيره من الشباب يرعى الغنم قبل هذه الأحداث الّتي سبقت اختياره مسؤولا وممثلاً لدشرة أولاد صدّيق، حين أخبره قائد المجاهدين بذلك قائلا:« **أنت ستبقى معنا ومن اليّوم فصاعدا أنت هو المسؤول عن هذه الدّشرة...**»[3]،لتوكل له بعدها عديد المهامّ أبرزها جمع رجال الدّشرة في الجامع للاجتماعات، وأيضا تحصيل الاشتراكات الّتي تساهم في إمدادات الجيش، وقد تميّز بكونه من القلائل الّذين يعرفون القراءة والكتابة في الدّشرة يقول عيسى عن علي:«**يُعدُّ عليٌّ من القلة القلائل في الدّشرة ألّذين يعرفون القراءة والكتابة ولو بالقدر القليل.**» [4]وقد كانت هذه الشّخصية شخصيّة اجتماعيّة ميّالة لفعل الخير ومساعدة النّاس وكان ذا قدر عال من المسؤولية، وهذا ما اكتسبه من جرّاء تواصله مع المجاهدين لاحتكاكه بالمسؤولين والمجاهدين وقد

---

1. الرواية ، ص 53.
2 . الرواية، ص 49.
3 . الرواية ، ص 53.
4 . الرواية ، ص 64.

عُرف بمهارته في أداء المهامّ، وعند مواجهة أيّ مشكلة يهوّن الأمر بقوله:«**انتظر لا تقلق، سأتكفل بحلّ المشلكة !**

وكان موجودا في كلّ مكان لإزالة مخاوف سكّان الدشرة »[1]، وبعد سقوط الدّشرة على إثر قصفها وإحراقها، قام بمحاولات إعادة إعمارها، لمساندة وإعالة الجنود المارّين من هناك، وقد وُجدت هذه الشّخصيّة لترمز إلى التّضحيّة في سبيل الصّالح العام، والإرادة والكفاح بكل ما أوتيت من قوّة من أجل تحقيق مبتغاها.

ب ـ شخصيات ثانويّة:

شخصيّة الجدّة بختة:

بختة هي جدّة عيسى من أمّه، وقد سكنت بالقرب من المنزل العائليّ لعيسى وقد ذكرت مرّة واحدة في الرّواية، وقد ساعدت في ربط الأحداث، وذلك أنّ الأمّ عائشة بعد شجارها مع زوجها كانت تذهب إليها، ما عدا هذا لم تشارك هذه الشّخصية في أي أدوار أخرى بارزة، وتعتبر شخصيّة مسطّحة بسيطة لم تتطوّر أو تتبدّل في مشاعرها ومواقفها إذن فهي بذلك شخصيّة ثابتة.

شخصيـّة سى محفــوظ:

كان سي محفوظ يكبر علي تفاحي قليلاً، وقد عمل بناءً، بالإضافة إلى هذا كان ذا ذاكرة قويّة وقد «**كان امروً بشوشا ضحوكا وذاعينين عسليتين جميلتين، ويملك ذاكرة عجيبة، كان يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويقرأ آياته دون تلعثم... وقد كان يسكن بمنزل ناءٍ بالقرب من فركيوة في قلب الجبل بالمكان المسمّزْديدية**»[2].

---

1 ـ الرواية ، ص 101.

2–الرّواية، ص 66.

وكان يعتبر مناضلا اجتماعيّا، ففي بداية الثورة كان مسؤولا عن منطقة فركيوة وينشط تحت مسؤولية قادة آخرين ممثلين عن عشر مداشر مجاورة، وكان ذا شخصيّة لا تخاف المسؤوليّة، وهذا سرّ اختياره من طرف المجاهدين لهذا المنصب، إضافة إلى امتلاكه فكرا تحرريّا فقد «**ثار ضد البؤس الّذي كان يعيشه إخوانه الجزائريّون**»[1].وكان شخصا أمينا حافظا للأسرار ما جعل المجاهدين يقيمون عنده « **ما يشبه ملحقة الحفظ والتموين لأحد قطاعات الولاية الرّابعة** ».

تميّزت هذه الشخصيّة بالفطنة والذّكاء والجرأة، وقد ظهر هذا جليا في إحدى المرّات حيث تلقى الأوامر من قادته بقطع جزء من الطّريق الرّابط بين فركيوة وجبل زيما، حيث رفض فعل ذلك لِما رأى فيه من خطورة على السّكان، وعدم جدوى ذلك لأنّ المستعمر يملك الإمكانيات التي تمكّنه من إصلاح الطّريق في وقت قصير، فأبى أن يعرّض السّكان لخطر انتقام الجيش الفرنسيّ فعصى أوامر قادته الثوريّين وتحمل مسوؤليّة ذلك، فكانهذا سببا في قتله، فقد كان شخصا ضحّى بحياته مقابل أمن سكّان الجبل.

شخصيّة قايد بوكرام:

ربطتها علاقة وطيدة بالأب أحمد، فقد كان للاثنين ميول للصيد، وهذا ما ساعد في توطيد هذه العلاقة بينهما. والقايد هو رتبة في نظام وجد منذ عهد الدولة العثمانية وأبقت عليه فرنسا إلى غاية إنشاء النّظام المدني القائم على البلديات والدّوائر، حيث كان القايد الواسطة بين الشّعب والإدارة الاستعماريّة، ويخضع لسلطتها، وإلاّ ما أبقت عليه، وما كانت لتمنحه البرنوس والنياشين ويحصل على التّرقية بعد مدّة معينة من الخدمة، وكثيرا ما كان القيّاد يتسلطون على أبناء الشّعب مثلما حدث مع سليمان صهر أحمد في القصّة المذكورة سابقا، وقد اعتمدت عليه فرنسا حين احتلّت الجزائر لنيل اعتراف القبائل والمداشر الجزائريّة .

---

1 الرواية، ص 67.

وقد استغل قايد بوكرام منصبه للتقرب من الفرنسيّين، يقول عيسى:« **القايد الذي يتملق لكسب رضاالروميين»**[1] ، وسعيه للتقرّب من الفرنسييّن كان من أجل مكاسب شخصيّة:«**فكل شهر أوكل خمسة عشر يوما ينزل النّاس إلى السّوق بالمقاطعة المركزيّة حيث مقر السّلطة الفرنسيّة والقايد الّذي يخضع لها لأن الأجرة الّتي يتقاضاها تأتيه من الإدارة».**[2]

فقد كان الاحتلال الفرنسي يخصص مبلغا من المال بالإضافة إلى امتيازات للقياد وهذا من أجل جعلهم ينصاعون لأوامرهم. وقد تميزت هذه الشخصية بالتسلط واستخدام العنف والقوة ضد أفراد الشّعب الّذي من المفترض أن تسانده وتآزره، فكان« **إذا كشف أحد عن رأيه وصرح به فإنه سيتلقى بطشاوفتكا من القايد المتسلط أو من الدرك**»[3]فقد كان يعتدي على المواطنين لأتفه الأسباب، فمرّة أمر«**القايد رجاله بالمسّك بسليمان خال عيسى واشباعه ضربا لمجرد أنه لا يُقَبِّلُ جبهته ولم يظهرالاحترام.».**[4]

فالاحتكاك المستمر للقايد بالفرنسيّين بالإضافة لما يتلقاه منهم جعله كدمية تنفذ ما يطلبون. وقد ساعدت هذه الشّخصية في دفع مجرى الأحداث في الرواية إلى الأمام .

شخصية مسعودة أخت عيسى:

هي الأخت الكبرى لعيسى، وقد كانت كثيرا ما تساعده في الخروج من المآزق التي يقع فيها « **أختي مسعودة هي التي ستخلفني في القيام بالمهمة، هي التي دائما تصلح حماقاتي».**[5]وهذا ما ساعد في تقريب هاتين الشخصيّتين من بعضهما البعض، فقد ربطتهما علاقة

---

1 الرواية ، ص 56.

2 . الرواية، ص 65.

3 . الرواية، ص 62.

4 . الرواية، ص 31.

5 . الرواية، ص 40.

حب واحترام. كما أنها كانت تساهم في الأعمال المنزلية، ولم تذكر هذه الشخصيّة كثيرا، فقد وجدت في الرواية لتقوم بدور المساعدة للبطل فقط.

شخصية سعيد أخ عيسى:

هو الأخ الثاني لعيسى وهو شخصية ثابتة، نادرا ما ذُكر فى الرّواية فلم يظهر كثيرا، فقد هرب من جبال تامزقيدا مع والده إلى العاصمة ليختبئ هناك فقد انتهى دوره في القصة سريعا**«كان معنيّا بالحراسة مع الشّباب الآخرين، وكونه ذهب ليختبئ بالجزائر العاصمة حتى لا يقبض عليه الجيش الفرنسي كان عليه أن يقدّم مبلغا من المال لبديله».**[1]وبالتّالي فهي شخصيّة مسطحة لم تتغير على مدار الرّواية.

الخال سليمان:

شخصيّة تميّزت بالذّكاء والغضب، وقد كان ميالا للتكبر والتّرفع، وقد كان « **يبدو مختلفا عن باقي سكان الدّشرة، ولا يشغل نفسه بما يشغلهم...إنّه رجل غضوب يرى الحياة بشكل مختلف ومع ذلك كان يمتاز بالذكاء»**[2]هو خال عيسى تواتي وهو شخصية ثانوية.

2- **الزمن في الرواية:**

إن الزمن في الرواية أو القصة يعد خلفية لابد من توفرها من أجل سيرورة أحداث القصة فقد صار ينظر إليه على أنه جزء ضروري وحيوي من أجزاء البنية الأساسية للعمل القصصي أو

1ـ الرواية، ص 99.

2ـ الرواية، ص 30.

الروائي، «**إن هذا الزمن يوشك أن يصبح بطل القصة**"،[1] كما أن "**الزمن هو الذي يوجد في السرد وليس السرد هو الذي يوجد في الزمن.** » [2]

كما أن هناك علاقة بين الزمن والمكان في الرواية، فهي في الأساس فن زماني مكاني فبالحديث عن المكان يتبادر إلى ذهننا مباشرة كلمة الزمان، فكل واحد منهما يكمل الآخر فهما من يشكل بيئة القصة؛ أي أنّها الوسط الطبيعي الذي تتحرك فيه الشخصيات وتدور فيه الأحداث.

المفارقات الزمنية:

لقد عرفها جيرار جينيت بقوله :"**هي دراسة ترتيب الزمن لحكاية ما لمقارنة نظام ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنية في الخطاب السردي بنظام تتابع هذه الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة.**"[3]

وقد ميز جيرار جينيت بين نوعين من المفارقات الزمنية:

الاسترجاع:

وهو على حد قول جان ريكاردو "**هو العودة إلى ما قبل نقطة الحكي؛ أي استرجاع حدث كان وقع قبل الذي يحكى الآن.**"[4]

1 رولان بورنوف وريار أونيليه، عالم الرواية، تر: نهاد التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1991، ص 118.

2 حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي ، بيروت، ط1 ، 1990 ، ص 117.

3 جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ترجمة محمد معتصم وآخرون، المشروع القومي للترجمة، مصر، ط2 1997، ص 47.

4 ينظر: جان ريكاردو، قضية الرواية الحديثة، تر: صلاح الجيهم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، 1977، ص 250.

ونجد الاسترجاع لعيسى تواتي في قوله :« **وقد تلقى محفوظ نهاية سنة 1956 أمرا بقطع الطريق الجديدة الرابطة بين فركيوة وممر زيما حسب ما قاله لي عليّ..**» [1] فالسارد هنا يستذكر موقف لسي محفوظ الذي حاول فيه حماية الشعب من بطش المستعمر.

وفي المقطع الآتي يستذكر السارد الانفجارات والغارات التي كانت تشنها القوات الفرنسية على الشعب الجزائري، وهذا ما يتضح في قوله: « **كانت الانفجارات تسمع هنا وهناك وتكسر صمت الغسق ولم يكن هذا يشبه دويّ الديناميت المادّة المتفجرة التي كان يستعملها الفرنسيون في حرق الجبل على القمم والمرتفعات.**» [2]

وعلى العموم فقد أبان عيسى تواتي على قدرته على العودة إلى الوراء في عدة مواقع وفي عدة مناسبات، «**باعتبار أنّ سرد الأحداث الماضية هي سمة الرواية**»[3].

الاستباق:

هو ذكر الحدث قبل وقوعه، فهو توقع وانتظار لما سيقع مستقبلا، تعرفه ميساء سليمان على أنه «**التطلع إلى الأمام أو الإخبار القبلي، يروي السارد فيه مقطعا حكائيا يتضمن أحداثا لها مؤشرات مستقبلية.** »[4].

فالاستباق هو عملية سردية تتمثل في إيراد حدث أو الإشارة إليه مسبقا، وكمثال على ذلك في الرواية نجد تنبؤات رمضان بشأن قيام الثورة واستقلال الجزائر، وذلك قبل حدوثه، وذلك في قوله:« **ستقوم الثورة قريبا، سيعلن الجهاد...والروميون هؤلاء سيخرجون من بلدنا** »![5]

---

1 ـ الرواية، ص 68.

2. ـ الرواية، ص 70.

3. الأستاذ سالم سعدون، لقاء في إطار الإشراف على مذكرة التخرج للماستر2، يوم 22 ماي 2022، الساعة 12:20

4 ـ ميساء سليمان الإبراهيمي، البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق ، 2011 ، ص 203.

5 ـ الرواية ، ص 51.

الديمومة:

«هو مفهوم يرتبط بإيقاع السرد لما هو لغة، تعرض في عدد محدود من السطور أحداثا، قد يتناسب حجم تلك الأحداث مع طول عرضها أو لا يتناسب، مما يؤدي في النهاية إلى الشعور بإيقاع السرد يتراوح بين البطء والسرعة».[1]

ولضبط الإيقاع الزمني يجب أن نميز بين أربعة تقنيات أساسية، والتي حصرها جيرار جنيت في:

الحذف:

تعد تقنية الحذف من أهم الوسائل الاختزالية التي يعتمد عليها الكاتب الروائي في سرد أحداث روايته، يقول أيمن بكر في هذا الشأن:« **هو أقصى سرعة للسرد وتتمثل في تخطيه للحظات حكائية تتصف بالتواطؤ.»** [2]

ومن نماذج الحذف في رواية تمزقيدا نجد في قول عيسى عن أخيه رمضان:« **لم يعد المقاتل الذي ما فتئ يشرف دشرته التي ولد فيها أمام رفاقه في السلاح، هذا الذي وصل إلينا في نهاية الصيف أوت 1958 إنه أخي رمضان العزيز.. وحده لا رفيق معه... يمشي بصعوبة يبدو منقبا بلباسه العسكري الممزق، ولا يحمل سلاحا...»** [3]

هنا حذف السارد ما وقع قبل صيف 1958، وأيضا ماذا حدث لرمضان قبل وصوله للقرية، فقد حكى حال وصوله فقط، بغض النظر عما حدث له.

1 ـ أيمن بكر، السرد في مقامات الهمذاني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 1998 ص 54.

2 ـ الرواية، ص 54.

3 ـ الرواية، ص 18.

والملاحظ في هذه الرواية كثرة البياضات التي نجدها عبر صفحات الرواية، بالإضافة إلى النقاط المتتابعة التي تتخلل الكتابة ذاتها للتعبير عن أحداث محذوفة .

الخلاصة:

تقع الخلاصة «**ضمن الإيقاع المتسارع للسرد، ولكنها أقل سرعة من الحدث، فهي تلخص حوادث عدة أيّام أو عده شهور أو سنوات في مقاطع معدودات، أو في صفحات قليلة دون الخوض في ذكر تفاصيل الأشياء أو الأقوال.**» [1]

لم تكن لهذه الحركة حضورا قويا في الرواية، ونجد مثالا حول هذا في قول عيسى:« **أرى اليوم بعد التحليل بالنسبة لمنطقتنا أن نهاية سنة 1958 وبداية سنه 1959 كانتا بمثابة المنعرج في المواجهة بين المعسكرين، قبل هذه الفترة كانت الثورة متفوقة على المستوى العسكري في الولاية الرابعة التي كان يقودها قادة كبار أمثال علي خوجة وسي لخضر..**» [2]، فهنا لخص عيسى حال الثورة وكيف انقلبت الموازين في سنتين خلال عدة أسطر.

وفي موقع آخر في الرواية يلخص لنا السارد حالة منطقة ريفي(مفتاح حاليا)، ومدى التحول الذي حصل فيها في قول« **أصبحت منطقه ريفي تعيش وقائع الحرب مع مرور الشهور، إذ كثر بها تواجد الفرق العسكرية بشكل دائم من أجل حماية الكولون، فقد كانت المتيجة حديقة الاستعمار بامتياز ويجب حمايتها بأي ثمن.**»[3]، فنجد السارد هنا يلخّص الأحداث التي جرت خلال عده شهور بهذه المنطقة في ثلاثة أسطر.

1 ـ حميد لحمداني، بنية النص السردي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 1991 ، ص 75.
2 ـ الرواية، ص 92.
3 ـ الرواية، ص 140.

الوقفة:

يمكن تسميتها بالاستراحة، وهي زمن الكتابة أو زمن الحاضر الذي يتوقف فيه السارد ليفسح المجال للوصف والتقرير والإنشاء، فقد عرفها حميد الحمداني بقوله :« **توقفات معينه يحدثها الراوي بسبب الانتقال إلى الوصف ، فالوصف يقتضي عاده انقطاع السيرورة الزمنية ويعطّل حركته**» .[1]

ونذكر على سبيل المثال ما جاء في وصف عيسى لجبل تامزقيدا، والمناظر المطلة على البحر في قوله:« **وهناك بعيدا ترتسم قبالتي سحب ذات لون أملج مصفرّ يحمل تلوثا وتحجب خليج مدينة الجزائر العاصمة، ومن جهة الشرق تبدو باليسترو palestro (الأخضرية حاليا) تختفي من وراء حدبتي جبل بوزقزة الضاربتين إلى اللون البنفسجي.**» [2]، هنا يتساوى زمن السرد وزمن الحكاية حيث يقوم عيسى بوصف ما رآه لما وقف على جبل تامزقيدا، فهذه التقنية تبطئ السرد.

وفي وقفه أخرى مع عيسى وهو يصف حالته ومظهره يقوله:« **أيّ مظهر وأيّ مشهد يمكننا أن نعطيه بجلابتنا تلك المتهرية التي تغيرها لنا والدتنا مرة واحدة في السنة بمناسبة العيد !أعيش حافي القدمين على طول السنة تقريبا..**» [3].

المشهد:

نقصد به «**الحوار الذي يأتي في الكثير من الروايات في تضاعيف السرد، إن المشاهد تمثل بشكل عامّ اللّحظة التي يكاد يتطابق فيها زمن السّرد بزمن القصّة من حيث الاستغراق.**»[4]

---

1 ـ حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص 76.

2 ـ الرواية، ص 14.

3 ـ الرواية، ص 32.

4 ـ حميد لحمداني، بنية النّص السردي، ص 78.

ويعدّ المشهد والوقفة من أهم التقنيات المساهمة في تعطيل السرد الروائي، « **والمشهد عكس الخلاصة ترد فيه الأحداث مفصلة بكل دقائقها وتفاصيلها ويحقق المشهد عند جيرار جينيت تساوي الزمن بين الحكاية والقصة تحقيقا حرفيا.»**[1]

ومن الملاحظ أن تقنية المشهد تحتل نسبة كبيرة في رواية تامزقيدا فقد وضعها عيسى على شكل حوار بين شخوص الرواية.

ومن بين مشاهد الحوار نجد بن عمار ورده الدائم للسائلين عن حاله:

« **ـ كيف الحال يا عم ؟**

ـ لست في حالة جيّدة، ولا شيء يفرح لم أرى في حياتي إلا التعاسة والشقاء ! عمّارة زوجتي عمياء، وحماري أعمى وقطّي أيضا أعمى »![2]

وأيضا المقطع الحواري بين عيسى وأمه حين ذهب للمداواة على عينيه عندما مرض بداء الرمد:« **ـ أمي، أمي، هذا رمان.. إني أرى الرمان.. لقد شفيت لقد شفيت !**

وطفقت أمي تبكي من شدة الفرح.

ـ قولي لي يا أمي ما الشيء الذي بصق به المرابط في عيناي؟

فردت علي وهي تمسح دموعها:

ـ ملحا كبيرا يا بني »![3]، ومن خلال هذا المشهد استرجع عيسى ذكرى أليمة حدثت له في صغره كادت أن تغيّر مسار حياته لولا أنه نجى من العمى.

---

1 ـ ينظر جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص168.

2 ـ الرواية، ص 22.

3 ـ الرواية، ص 23.

بالإضافة إلى هذا المشهد نجد مشهدا أخرا يستذكر فيه حوارا مع عليّ حين رمت طائرات الجيش الفرنسي منشورات، لم يكن هناك من يقرأها سوى عليّ:

« **ـ إنه بالفرنسية والعربية..**

يعد علي من القلة القلائل في الدشرة الذين يعرفون القراءة والكتابة، ولو بالقدر القليل ثم واصل شرحه قائلا:

ـ إنهم يعلنون توقيف أحمد بن بلة ومحمد بوضياف وحسين آيت أحمد ومصطفى الأشرف ومحمد خيثر، قادتنا الأساسيين.» [1]، رغم أنّ الكاتب نقل لنا كلام عليّ فقط إلاّ أنّ المشهد يوحي بوجود حوار.

وفي الأخير يظل الزمن أحد التقنيات المعتمدة في الرواية ، باعتباره أداة مهمّة تخدم أغراض القصّة من ناحية الفنّ ومن ناحية تأدية رسالته .

3- المكان:

«**يكتسب المكان في الرواية أهمية كبيرة، لا لأنه أحد عناصرها الفنية، أو لأنه المكان الذي تجري فيه الحوادث، وتتحرك خلاله الشخصيات فحسب، بل لأنه يتحول في بعض الأعمال المتميزة إلى فضاء يحتوى كل العناصر الروائية، بما فيها من حوادث وشخصيات، وما بينها من علاقات، ويمنحها المناخ الذي تفعل فيه، وتعبر عن وجهة نظرها، ويكون هو نفسه المساعد على تطوير بناء الرواية، والحامل لرؤية البطل، والممثل لمنظور المؤلف، وبهذه**

1 ـ الرواية، ص 64.

الحالة لا يكون المكان كقطعة القماش بالنسبة إلى اللوحة، بل يكون الفضاء الذي تصنعه اللوحة» [1].

لقد ارتبط عنوان رواية تامزقيدا بالمكان الرئيسي الذي تدور فيه الأحداث وهو اسم الجبل الذي عاش فيه الكاتب هو وعائلته، وترعرع هناك في مرحلة تاريخية هامة من تاريخ الجزائر وهي مرحلة الثورة التحريرية، وهذا المكان كان يمثل بالنسبة للطفل عيسى عالمه الذي قد يبدو جامدا من بعيد لكنه ينبض بالحياة والحركة، فنجد الكاتب يغوص بنا في جنبات جبل تامزقيدا وكأنه يقوم بتكبير الصورة لتظهر لنا في كل مرة تفاصيل جديدة لم تكن ترى من بعيد فيظهر:

جبل أبو جمل:

وهو المكان الّذي يحمل رمزية كبيرة بالنسبة إلى عيسى وعائلته فهو المكان الذي استشهد فيه أخوه رمضان « **هنا حيث سقط أخي الأكبر رمضان شهيدا والسلاح بيده سنة 1960 رفقة آخر مجاهدي الكتيبة الّتي كان ينتمي إليها من أجل تحرير الجزائر»** [2]، فرغم الذّكرى الأليمة التي يبعثها هذا المكان في نفسيّة عيسى، إلا أنّه بالمقابل مبعث للافتخار وتخليد لذكرى وبطولات الشهداء والمجاهدين، حيث يحمل قبر رمضان رمزية عظيمة وهو يشرف على مدينة الجزائر العاصمة وكأنه يرى ويحرس هذه الأرض الطّاهرة، ويذكرنا برسالة الشهداء وتضحياتهم، فرغم مرور أكثر من خمسين سنة على الذكرى إلاّ أنّ رؤية عيسلهذا المكان كان ومازال يترك أثرا بليغا في نفسيته.

1 . جماليات المكان في الرواية ، أحمد زياد محبك ، موقع : ديوان العرب https://www.diwanalarab.com، 6يونيو 2005، 08جوان 2022 الساعة : 11:09

2. الرواية، ص15.

جبل تامزقيدا:

يُعدُّ جبل تامزقيدا المكان الأول الذي تدور فيه أحداث الرواية وهو العالم بالنسبة لعيسى وأقرانه، لم يكن الجبل جامدا هامدا بلا حركة، بل كان نابضا بالحياة التي تجسدت في الغابات الكثيفة، والينابيع العذبة، وقطعان الماشية ورعاتها، والناس الذين يتّجهون إلى السّوق في تابلاط والباعة المتجولين، وأثناء الثورة شهدت مرورا كثيفا لكتائب المجاهدين، قابله حضور كثيف لقوات الجيش الفرنسي التي كثيرا ما كانت تقيم المعسكرات في قمة جبل تامزقيدا، يقدم عيسى صورة طوبوغرافية عن الجبل الذي يختص بموقع استراتيجي، وهو ما سيؤهله لاحقا لاحتضان مجموعة من الأحداث خاصة مع اندلاع الثورة حيث أصبح الجبل منطقة عبور لكتائب المجاهدين شرقا وغربا ومنطقة للعمليات والدعم اللّوجيستي للثورة وقاعدة خلفيّة للمجاهدين في العاصمة، حيث يتوسط جبل تامزقيدا مجموعة من الجبال كما أنه يقع غير بعيد عن العاصمة مما ساهم في تنقل سكان المنطقة إلى العاصمة للعمل أو للفرار من خطر أو تهديد معين، وهو ما حدث مع زوج العمّة عندما قام بإطلاق النار على بوعلام وأصابه في فخذه، فهرب إلى العاصمة خوفا من العقاب، كما أن الوعي الذي اكتسبه رمضان كان بسبب تردده على العاصمة وهو ما كان سببا رئيسيا في التحاق رمضان المبكّر بالثورة، لنشهد في ما بعد فرار أحمد (والد عيسى) إلى هناك ثم التحق به ابنه سعيد.

دشرة أولاد صديق:

تقع هذه الدشرة على سفح جبل تامزقيدا من الجهة الشمالية مقابلة بذلك سهل متيجة، والبحر الأبيض المتوسط، هذا البحر الذي كان يبدو منه جزء (خليج الجزائر) بلون أزرق كان

يسميه عيسى وأقرانه بالقلتة*[1] التي كثيرا ما تكون متنفسا لأطفال الدشرة للاستجمام والهرب من لفح شمس الصيف الحارقة.

لقد حظي وصف المكان في رواية تامزقيدا باهتمام كبير من الكاتب فنجده يسعى إلى رسم صورة المناظر الطبيعية الخلابة وكأنّه فنان تشكيليٌّ فيقول في وصف أحد المناظر: « **وهناك بعيدا ترتسم قبالتي سُحُبٌ ذات لون أملجَ مُصفرّ... ثمّ تتوهجُ مثل مشعلٍ من نورٍ ثنايا جبال جرجرة** »[2] ، حيث تظهر دقة الوصف مع مهارة تشكيل المعنى، ويروي لنا عيسى في لقائنا به أنه أثناء تواجده بفرنسا قام بطلاء المكان الذي يعمل فيه بطريقة فنية نالت الإعجاب والثناء، ما يفسر حب عيسى لاستعمال الألوان في رسم المناظر التي كان يراها، هاذه المناظر التي كانت تأسره بجمالها منذ الصغر رغم قساوة الحياة هناك، وما كان يعانيه هو وعائلته من فقر وجوع تحت وطأة الاستعمار، ولهيب نار الثورة، وما تحتاجه هذه الأخيرة من تضحيات جسام، هذه الثورة التي بصمت في عمق نفسية عيسى وشخصيته، ومستقبل عائلته وهو ما جعله يربط طفولته بها من خلال عنوان الرواية وكذا مجرى الأحداث والمواقف الاجتماعية داخل الرواية.

لا ينفك عيسى يرسم لوحات فنية لمناظر خلابة تنبض بالحياة والأمل رغم ما تفرضه الحياة في الجبال النائية من ظروف قاسية، وانعدام المرافق العامة، وصعوبة التنقل إلى المدينة والأماكن المجاورة من خلال المنحدرات والطرق الوعرة.

دشرة الشطابيّة:

وهي الدشرة التي تسكنها عمّة عيسى، فقد أتى ذكرها في سياق الحديث عن معركة الشطابية سنة 1958، واستبسال المجاهدين خلالها واستشهاد الكثير منهم خلال تلك المعركة

---

*حوض محفور في الأرض يستخدم لجمع الماء المتدفق من الجبل لغرض السّقي.

2 . الرواية، ص 14.

بالمقابل تلقت قوات الاحتلال خسائر فادحة يقول ، عيسى عن هذه المعركة :« **زادت المعركة من جهة الشطايبية...فكانت تلك بداية لمعركة ضارية ستبقى مشتعلة النهار كلّه...إذ كانت القذائف المدويّة تمرّ مدوّية فوق رؤوسنا...القذائف تُطلق من جهة ساكامودي، والفرق العسكرية تنزل من كلّ مكان من القمم والسماء...كنّا نشاهدُ من الجهة العلويّة للشطايبيّة مروحيات تحوم ثمّ تحُطُّ على مقربة. هل كان الجيش**(الفرنسي) **ينقلُ موتاهُ وجرحاه؟...نجح أفراد الكتيبة الأولى من تجاوز المأزق لكنّهم هوجموا بالطائرات من جهة تازرين، ولا سكّ أنّه سقط فيهم شهداء.**[1]»

ليأتي بعد ذلك الدّور على الأهالي للبحث عن جثث الشهداء ودفنها، يذكر عيسى ذلك قائلا:

« **ولمّا ذهب العساكر الفرنسيون، خرج رجال الشطايبيّة من مخابئهم، ثمّ راحو يحفرون لإخوانهم الأبرار قبورهم بالمقبرة، هم المكلّفون بدفن شهدائنا**[2]»، قدّمت هذه الدشرة تضحيات كبيرة خلال الثورة فيذكر عيسى ذالك قائلا: «**وبالشطايبيّة حيث كان يعيش بها حوالي ثلاثون رجلا ، ضحى اثنا عشر منهم بحياتهم ـ من بينهم عشرة جنود ـ من أجل كرامة شعبهم ووطنهم**[3]»

وهو ما يفوق ثلث رجال هذه الدشرة، التي تعرضت لنفس مصير قرية أولاد صدّيق، وأولاد منّي والشنهرية، فقد تم إحراقها جميعا في نفس اليوم.

دشرة تاقربوس:

تقع هذه الدشرة على أرض سطيحة أسفل المنحدر الجنوبيّ لجبل تامزقيدا على بعد نصف المسافة الفاصلة بين تابلاط وأولاد صدّيق، وجاء ذكر هذه الدشرة بعد إحراق دشرة أولاد صدّيق، حيث أقامت عائلة عيسى عند عمّه هناك، بعد رفض السلطات الفرنسية الترخيص لهم بدخول محتشد فركيوة باعتبارهم أشرارا. في أثناء ذلك عاد عيسى من العاصمة فقد كان هناك مقيما مع

1 . الرواية، ص 88.

2 . الرواية، ص 89.

3. الرواية، ص 105، 106.

والده منذ مدّة، وبتابلاط التقى بأحد جيرانه الذي أخبره بتواجد عائلته عند عمّه بتاقربوس فالتحق بعائلته هناك ، فوجد أمّه قد مازالت تحت الصدمة ، لتقصّ عليه الأحداث بالتفصيل فيما بعد، ومن هناك توجه عيسى إلى أولاد صديق ليقف شاهدا مصدوما على حجم الدمار الذي لحق بدشرته.

البيوت:

كانت رواية تامزقيدا حافلة بالأماكن الاجتماعية المتمثلة في البيوت التي كانت موزعة على عدد من المداشر، وكانت دشرة أولاد صديق، أين يقع بيت عائلة الطفل عيسى، تتكون من عشرة بيوت وأبرزها: بيت عائلة عيسى وهو مسرح الأحداث الرئيسي وبجانبه بيت أوناسي ومجموعة أخرى من البيوت التي لم توصف بكثرة، وإنّما جاءت في سياق وصف المكان، هذا الوصف الذي أعطى تصويرا فنيا جميلا للأماكن التي ذكرها الكاتب، يقف خلاله عيسى على التفاصيل الصغيرة ليمهد لميزاج الشخصيات وطبعها، فيصبح المكان« **تعبيرات مجازية عن الشخصية، لأنّ بيت الإنسان امتداد له، فإذا وصفت البيت، فقد وصفت الإنسان** »[1]، يصف عيسى البيت الذي ولد وترعرع فيه فيقول:« **لا يمكننا الحديث عن مزرعة لوصف المسكن المبنيّ من الطّين المجفف، الذي كنّا نعيش فيه معا، عائلتنا نحن وعائلة عمّي محمّد، بني المدخل من جهة الشمال معلّما بصفّ من الأشجار... ويحيط جزءٌ مغطى من مسكننا فناءً عامّا مكشوفا حيث يتعايش الإنسان والحيوان، ويصل عدد الكائنات الحيّة إلى ما يقارب الخمسين، دون حساب الدجاج والأرانب...** »[2] وهنا نشأت علاقة وطيدة بين عيسى والمعزات والحمار حيث أصبحت هذه الحيوانات الرفيق الدائم لعيسى فهي إما معه في المرعى على سفوح جبل تامزقيدا أو معه في البيت يسمع أصواتها ويقوم بخدمتها ورعايتها .«...**يحتوي الجزء المغطّى على غرفة كبيرة مشتركة حيث تم تهيئة ثمة مكانين**

---

1 . ويليك رينيه، وارين أوستن، نظرية الأدب، تر: محيى الدين صبحى، مر: د. حسام الخطيب، المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، دمشق، 1972، ص 288.

2 . الرواية، ص 41.

لإشعال النّار تستعملاهما العائلتان للطبخ والأكل بشكل مستقل. وتطلّ الغرفة على الحوش (فناء الدّار) مما يساعد كثيرا على التهويّة...وعند آخر الغرفة تمّ تخزين احتياطاتنا من الغذاء بداخل كوة حفرت على مستوى الحائط. وثلاث أو أربع كوفيات أو خابيات ذات السعات المختلفة يُخبأُ بداخلها بقولٌ من البزلاء والفول، تم بناؤها ثمة في الركن وتقيها من ثلثها الأسفل وسدّ الثُّقب بركيزة من خشب[1]». فكلّ هذه التدابير والاحتياطات، إضافة إلى حسن التدبير، تعكس صعوبة الحياة خاصة خلال فصل الشتاء وما يتطلبه من توفير للحطب والغذاء الذي كان لا يكف العائلة في أغلب الأيّام .« **ولما تحتاج والدتي إلى بعض المواد تنزع الركيزة فترى الحب يتدفق. وتتراص أربع غرف على مستوى الفناء ولكل واحدة منها حفرتها لإشعار النّار والطبخ: واحدة مخصصة للرجال، والأخرى لكبار السّن من الأقارب. والغرفتان الأخريان للأطفال الصغار المحيطين بأمّهم.**

وفي أركانها تم وضع على الأرض حصائر حيث تتراكم فوقها أغطية وأفرشة بعضها فوق بعض؛ تقوم والدتي باستعادة أكياس الدقيق اللّين المستعملة وتشقها من الوسط ثم تحشوها بقطع الأقمشة القديمة لتصنع منها وسادات.»[2] تظهر صورة أم عيسى في الكثير من المشاهد والأدوار داخل البيت، فهي تخيط وتنفض الفراش، وتخدم الضيوف، وتنوّم الأطفال بحكي الحكايات، وأثناء الثورة ها هي تصنع الخبز للمجاهدين من خلال هذه الأدوار الكثيرة يتضح لنا أن البيت كان يمثل بالنسبة إلى أم عيسى عالمها الخاص الذي تعرف عنه كل شيء وتتقن كل أدوارها فيه، بينما لم تكن لها دراية بتفاصيل العالم الخارجي«**أين تقع تونس؟ لا شك أنها بعيدة كثيرا عن**

1 . الرواية، ص41

2 . الرواية، ص 42.

مكة![1]»، ومن المؤكدّ أنّ الأمّ عائشة لم تكن تعرف مكة ولم تزرها، ولكنّ تعلق قلوب المسلمين بها وكونها قبلة للصلاة هو الذي جعل الأمّ تتخذها كمرجع لتحديد مواقع البلدان.

يواصل عيسى وصف البيت فيقول: «**أما الحصائر المصنوعة من نبات الحلفاء فقد تم شراؤها من سوق تابلاط أو سوق الاثنين...وكون هذه الغرف ليس بها نوافذ، فاشعة النور التي تدخل إلينا تأتينا من المدخل الرئيسي ومن الفناء الذي يستعمل فصل الصيف كقاعة للأكل. ومن وراء الحائط الجنوبي للبيت تمّ تهيئة شبه مرحاض على الهواء الطلق مخصص للنّساء**»[2]، ولا غرابة في ذكر كلّ هذه التفاصيل المتعلقة بالبيت وما يحتويه من تقاسيم وأثاث بسيط وتنظيم محكم يعكس الأدوار العديدة للبيت باعتباره فضاء للشخصيات وللكثير من الأحداث، والحنين إليه خاصة أنّ عيسى فارق هذا البيت هو طفلٌ، ليتم إحراقه وكل بيوت دشرة أولاد صدّيق، وفي هذا يقول الشاعر أبو تمّام:

نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى ما الحُبُّ إِلّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ

كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَأَلَفُهُ الفَتى وَحَنينُهُ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنزِلِ[3]

فرغم أنّ عيسى سكن في قرية تاقربوست، وفي مدينة ريفي(مفتاح حاليا) إلاّ أنّه لم يصف لنا تلك البيوت بتلك الصورة الجميلة التي وصف بها بيتهم في دشرة أولاد صدّيق بأعالي تامزقيدا.

وخلاصة هذا هي«**أن البيت مكان لابد منه لضمان استقرار الفرد وإثبات وجوده، فهو خلية يتجمع فيها وداخلها أفراد العائلة حيث يمارسون بشكل تلقائي علاقاتهم الإنسانية**»[4] لهذا أولى عيسى اهتمامه الكبير لبيت عائلته.

---

1 . المرجع السّابق، ص 70.

2 . المرجع السابق ، ص 43.

3.

4 . بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ص52.

وقد ساهم تعدد البيوت على إبراز دور بيت عائلة عيسى، وهو مسرح للأحداث الرئيسية هذا البيت الذي تتقاسمه عائلة عيسى وعائلة عمّه محمد مع مجموعة من الحيوانات الأليفة التي تمثل أحد أهمّ مصادر العيش بالنسبة للعائلة .

الجامع:

لقد أتى ذكر الجامع و«**هو آخر بناية تابعة للدشرة نزولا باتجاه الشنهرية**»[1] في أكثر من سبعة مواضع وبأدوار ووظائف مختلفة عن بعضها البعض، رغم أن عيسى لم ينل قسطا كافيا من التعليم فيه، حيث يعد التعليم ثاني وظيفة للجامع بعد الصلاة، والعبادة، والأكيد أن مردَّ هذا إلى ظروف اللاستقرار التي عاشتها المنطقة ولسوء الحظ أن المسجد احترق وغادر الإمام الدشرة لأن السكان لم يكونوا قادرين على إعادة بنائه من جديد. «**يوجد في أسفل الدشرة على طول الوادي بالقرب من المقبرة، بناية صغيرة نسميها "الجامع" التي تعتبر ملكيتنا الجماعية الوحيدة، والمدرسة القرآنية التي كانت تحفظ القرآن للأطفال به توقفت عن النشاط، بعدما التهمتها النيران التي تسبب فيها طفل صغير من أقاربي لما سكب خطأ الزيت التي تستخدم لإشعال السراج؛ فغادر معلم القرآن المكان ولم يعد. ومن يومها أصبحنا محرومين من الذهاب إلى المدرسة، ولم يأت أي شيخ آخر ليخلف المعلم لأن منطقتنا فقيرة جدا ولا تقدر على إعادة بنائها. لكن قبل أن تحترق مدرستنا، تمكن أخوايا الكبيران: رمضان وسعيد من تعلم قراءة بعض سور القرآن والكتابة باللغة العربية**»[2]، ويعتبر الجامع مكانا اجتماعيا، حيث يلتقي فيه رجال المداشر لتنظيم أمورهم وتسيير مصالحهم المشتركة، حيث يجتمعون في نهاية فصل الربيع لاقتسام أدوار السقي بمياه الوادي حتى لا تحدث فوضى تؤدي إلى النزاعات والمشاجرات ، «**ففي نهاية فصل الربيع يلتقي**

1الرواية، ص50.

2 . الرواية ، ص28

الرجال بالجامع للتشاور بشان من حان دوره للسقي...واحترام هذا النظام ضروري يصب في المصلحة العامة لكل المداشر. ولم يكن هنالك تقييد نظامي بشأن استغلال مياه الينابيع»[1].

فالجامع مكان اجتماعيّ عامّ يحظى بالقبول لدى كل الساكنين في الجبل.

وعند اندلاع الثورة كان المجاهدون يطلبون من رجال الدشرة التوجه إلى الجامع للالتقاء بهم هناك، يقول قائد المجاهدين لمجموعة من الرجال:« **السلام عليكم، نريد ملاقاة كل رجال الدشرة بالجامع»**[2]، كما كان الجامع يمثل مرقدا للمجاهدين « **رمضان لم يبت عندنا بالبيت ولكن بالجامع اتباعا للإجراءات الأمنية»**[3].وبعد إحكام المجاهدين سيطرتهم على أولاد صديق ظهر شيخ جديد معلما للقرآن، وهي إحدى سياسات ثورة التحرير التي تهدف إلى نشر الوعي وترسيخ المبادئ الاسلامية لدى الجيل الصاعد من أجل إعداده ليكون ذخرا للثورة ،يقول عبد الحميد بن باديس:

يا نشءُ أنت رجاؤنا و بك الصباحُ قد اقترب[4]

فقد كان عليّ هو الذي يدفع له أجرته من مال الثورة فلو لا الأهمية التي كانت الثورة توليها للتعليم ما كانت لتنفق كلّ تلك الأموال رغم شحّ الموارد وتضييق المستعمر على الأهالي، وكان الجامع يسع لحوالي ثلاثين طفلا وكانت الأولوية للذّكور، ليس تمييزا ولكن حاجة الثورة للرجال هي من فرضت ذلك، كلّ هذا لم يكن كافيا لإجبار عيسى على المحافظة على مكانه بين رفاقه فسرعان ما عاد إلى مصاحبة شياهه عكس أخيه محمد الذي كان أكثر انضباطا واجتهادا وبقي يتعلم القرآن لمدة أطول.

---

1 . الرواية، ص42

2 . الرواية، ص49.

3 . الرواية، ص78.

4. . عمار الطالبي، آثار ابن باديس، ص334.

من خلال هذا يظهر جليا ذلك الدور الاجتماعي الذي لعبه الجامع خلال فترة الاستعمار أثناء الثورة وقبلها.

الوادي:

وهو مكان يمتد أسفل الدّشرة حيث الأراضي الزراعية، هناك يملك والد عيسى قطعة أرضية استردها بالقوة من إحدى العائلات التي كان قد اشتراها من عندها أبوه، وهوما جعل شأنه يكبر بين سكان الدشرة، إنّ هذا الصّراع على الأرض ومحاولة أخذها غصبا ثم استردادها بالقوة يعكس ذلك الصراع الموجود بين الجزائريين والمحتلّ الفرنسي والعبرة من هذا الموقف أن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلاّ بالقوّة، وهو ما أصبح عقيدة لدى المجاهدين بعدما كان شعارا سياسيا قبل الثورة وكان عيسى مكلفا بمهمة إيصال قفة الطعام إلى والده هناك في الوادي، هذه المهمة التي كلفته الضرب بالعصا من طرف والده لأن الكلب "تيتو" أكل الطعام بعد أن وضعه عيسى عند رأس والده النائم وانصرف، هذا الأمر الذي جعله يحس أنه قد تعرض للظلم من طرف والده لكنه لم يكن قادرا على فعل أي شيء سوى تمرده وامتناعه عن أداء هذه المهمة لتخلفه أخته مسعودة.

يحمل الوادي لعيسى الكثير من الذكريات الأليمة التي بقيت راسخة في ذاكرته، فهو يذكرها بالتفاصيل الدقيقة بنوع من التأسّي، فيذكر عيسى أنه لم ينس حادثة تعرض والده لإصابة بحجر في حاجبه، ضربه به أحد جيرانهم بعد أن نشب شجار بينهما، ومازالت صورة وجه والده المخضب بالدماء مرسومة في ذهنه، وهو ما كان يمثّل صدمة عظيمة لطفل يرى مشهدا مرعبا بهذا العنف، وهذه القساوة في حق والده دون أن يكون قادرا على فعل أي شيء.« **في صباح أحد الأيام قام أحد جيراننا بعد شجار دار بينه وبين والدي برميه بحجر و هو بالوادي فأصابه بحاجبه، فلم أتحمل رؤية وجه والدي المخضب بالدماء. وإنها لصدمة عظيمة رؤية المرء أباه مستضعفا مهانا.**

فبكيت أيضا»[1] . وكم هي المواقف التي عاشها عيسى عيانا، ولم يكن قادرا على التدخل لتغيير الأمور، كونه كان طفلا لا تسمح له سنه ولا قوته بالتدخل في قضايا ومشاكل الكبار.

كما يحمل الوادي ذكرى أليمة أخرى لعيسى، وهي مشهد جثتي جمعة وبوعلام (بن أحمد فايدي) صديق عائلة عيسى، والذي تم توقيفه هو أيضا. وقد تمّ أعدم جمعة بوعلام هناك بالوادي من طرف جنود الاحتلال بكل برودة دم بعدما تعرضا للتّعذيب يصف عيسى ذلك المشهد فيقول: **«وجدنا جثتي بوعلام وجمعة مقتولين بالوادي فقمنا بدفنهما ثمة بمكان غير بعيد.»**[2]ليتم تسجيل جريمة أخرى، تضاف إلى جرائم فرنسا بحق الشعب الجزائريّ الأعزل.

تابلاط: هي مدينة تابعة إقليميا لولاية المديّة، وتعدّ أقرب مدينة لأولاد صدّيق وقرى جبل تامزقيدا مما جعلها مقصدا للسكّان من أجل التسوّق وبيع بضاعتهم، وفي هذا يقول عيسى:« **أنزل أحيانا رفقة حماري إلى مدينة تابلاط الأقرب منّا، هنا حيث توجد السّوق والمدرسة ومقرُّ البلديّة** [3]»، كما كانت مصدرا للتزود بالمؤونة الموجهة لإطعام المجاهدين، حيث يذكر عيسى أنّ علي تفاحي أعطاه نقودا، وكلّفه بالذهاب إلى هناك، وشراء كمية كبيرة من القمح ، ونقلها على ظهر حماره إلى أولاد صدّيق، ورغم م في ذلك من مخاطرة بحياته إلاّ أنّه أدّى المهمّة بنجاح.

لقد ذكر الكاتب في روايته الكثير من الأماكن، منها الرئيسية، ومنها الثانوية، من الأماكن الثانوية التي ذكرها :

"باليسترو" (الأخضرية حاليا)، وهو القطاع الإداري الذي كانت تنتمي إليه دشرة أولاد صدّيق، وجاء ذكره أيضا في سياق الحديث عن المعارك التاريخية التي خلدت بطولات الجزائريين ومنها كمين الأخضرية (ماي 1956)، كما ذكر منطقة "فركيوة " في بداية الرواية حين ذهب هناك

1 . الرواية ، ص.40.
2 . الرواية، ص 90.
3 . الرواية، ص 66.

رفقة والديه للتداوي عند "المرابط" من داء الرمد، ومع تطور الأحداث لاحقا أصبحت تلك المنطقة مركزا للجيش الفرنسي لمراقبة المنطقة، والقيام بالعمليات العسكرية المختلفة ضدّ الثورة كما أقام المستعمر هناك محتشدا للسكّان بغرض عزلهم عن الثورة . كما تحدّث عن الجزائر العاصمة حيث عاش مُدّة هناك رفقة والده، وأخيه سعيد، هذا المكان الذي كان بالنسبة إلى عيسى مبعثا للوعي حين ذكر تردد أخيه رمضان على العاصمة مما جعله يتكلّم كلاما ظلّ يبدو مبهما لدى الكثير من سكان أولاد الصديق حتى اندلاع الثورة حينها استوعبوا ما كان يقوله رمضان ، كما كانت بالنسبة له مبعثا للتحضّر حين تخلى عن القشابيّة، ولبس سروالا لأوّل مرّة. بالإضافة إلى أنّها كانت مصدرا للرزق، وتوفر فرص العمل ما يمكّن من توفير مدخول لدعم العائلة هناك في أولا صديق أو في تاقربوس، أو في "رفي" (مفتاح حاليا) .

إنّ كثرة الأماكن في هذه الرواية، تعطي دلالة على كثرة الأحداث، وزخمها من خلال التنقل المستمرّ من مكان إلى آخر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشير ذلك إلى حياة عدم الاستقرار، سواء على المستوى الفرد التي تعتبر حياة عيسى أصدق مثال لها، أو العائلة(عائلة عيسى) ، أو على مستوى المجتمع بصفة عامة من خلال ما حدث مع سكان مداشر جبل تامزقيدا والمحتشدات في فركيوة، والسكنات الهشة في" ريفي". وكلّ هذا يعكس السياسة الفرنسية التي سعت إلى تدمير شخصية الفرد الجزائري منذ طفولتة، وتفكيك الأسر والمجتمعات، وهي حقائق تاريخية محفوظة، وبشهادات حية لكثير من الظباط والجنود الفرنسيين الذين عاشوا هذه الثورة عيانا وسهروا على تنفيذ تلك السياسة الجائرة ضدّ الجزائريين.

خاتمة

لقد أنهينا دراستنا هذه بخاتمة فيها عصارة بحثنا، وزبدة تحليلنا لهذا العمل الفنّيّ، لنفتح من خلاله آفاقا جديدة لمزيد من الدّراسات، والبحوث في المستقبل.

ـ لقد أبدع عيسى تواتي في رسم صورة واقع الطّفل في الرّيف الجزائري، أثناء ثورة التحرير ومساهمة هذه الفئة في الثّورة على غرار النّساء، والرّجال، ممّا جعلها ثورة شعبيّة بامتياز بمشاركة جميع فئات المجتمع.

ـ كتب عيسى تواتي للجزائر، ولشعبها عن تاريخ الجزائر فصنع لنفسه، وعائلته، والمنطقة التي عاش فيها تاريخا كان مخفيا.

ـ القضايا الاجتماعيّة هي المسائل المشتركة بين مجموعة من الأفراد في مجتمع واحد، فهي تمثّل قاسما مشتركا بينهم، يوحدّهم.

ـ الرّواية أقدر، وأكثر جرأة من كتب التّاريخ في نقل الحقائق الاجتماعيّة، والتّاريخيّة، فقد نقلت رواية تامزقيدا الكثير من القضايا الاجتماعيّة والوقائع التاريخيّة الّتي تحفظت المصادر التاريخيّة عن ذكرها، فقد كشفت الرواية عن ذلك الجانب المسكوت عنه.

ـ تستمّدُّ رواية تامزقيدا قيمتها الفنيّة من كونها سيرة ذاتية، وأنها نقلت الواقع الاجتماعي وأنها كذلك متعلّقة بحدث تاريخيّ هامّ تمثّل في الثورة التحريريّة الجزائريّة.

ـ إنّ الشخصيات هي مكوّن أساسيّ من مكوّنات الرّواية، لأنّها هي الّتي تحرّك كيان الرواية ويقدّم المكان مساعدة للقارئ في التركيز، والتفكير وإدراك الأشياء والبيئة ذهنيا، وبذلك تنتظم لديه الأحداث والشّخصيات في وحدة متكاملة.

ـ إنّ كثرة الأحداث في الرّواية ناتج عن كثرة الحركة هذه الحركة التي تعطي دلالة على عدم الاستقرار الّذي عاشه عيسى وعائلته، وسكّان مداشر جبل تامزقيدا، حيث كان الجميع تحت مصير مشترك في ظلّ طغيان المستعمر، ولهيب الثورة ، وقساوة البيئة.

ـ إنّ ما عاشه عيسى، وعائلته، وتلك المشاهد من الثّورة، والقمع الفرنسيّ، والتّدمير والتّهجير، يشبه إلى حدّ بعيد ما كان يحكيه لنا آباؤنا وأجداد عن تلك المرحلة، وما عاشوه من بطش العساكر الفرنسيّين من جهة، ومعاناتهم من سوء الظروف المعيشيّة من جهة أخرى، ما جعلنا ننصهر في أحداث الرّواية، ونغوص بدراستنا في أعماق معانيها. كما قدمّ ذلك تفسيرات وأجوبة للكثير من التّساؤلات الّتي كانت ترتسم في أذهاننا عن أمور تاريخيّة كنّا نسمعها أو نقرأ عنها ولا نفهمها تمام الفهم.

ـ تعُجُّ الرواية بمشاهد لشخصيات بملابس وأدوات تقليديّة، تعكس تراث المنطقة، والجزائر عامّة، كالبرنوس والقشابيّة، والطاقيّة (الشاشيّة)، والأواني الفخاريّة، والأطعمة، وهندسة البيوت، وكلّها تعكس عراقة المجتمع الجزائريّ، وعمق حضارته الضّاربة في القِدم.

لقد تمكّن عيسى من خلال هذه الرّواية أن يردّ الاعتبار لأهميّة الوعي بالذّاكرة، والمشترك الجمعي، فقد اتّخذ من الثّورة والأزمات التي عاشها في تلك الفترة، وهو طفل، مرجعيّة فنيّة تعكس واقع المجتمع الجزائريّ بكلّ فئاته وأطيافه.

ومن هنا يمكن القول أنّ رواية تامزقيدا رسمت هويّتها الخاصّة بالعودة إلى التّاريخ، لترسم بدورها آفاقا وأبعادا جديدة لهذا الجنس السّرديّ المنفتح على كلّ المتخيّلات، والسّرود، فترسم بذلك تجربة خاصّة، تنطلق من الرّوائيّ واهتماماته التاريخيّة، والاجتماعيّة لتعبّر عن رؤيا خاصّة بصاحبها، تنطلق من الإيمان بقدرة الإنسان على مواجهة، وتحدّي واقعه، والسعي وراء طموحاته وآماله مهما كانت الظروف.

ملاحق

التعريف بالمؤلّف:

هو عيسى تواتي ابن أحمد، ولد في الثالث من ماي عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين بدشرة أولاد صدّيق بجبل تامزقيدا التابعة آن ذاك لمنطقة باليسطرو« palistro» (الأخضرية حاليا)، انتقل بعدها للعيش في مدينة ريفي (Rivi) مفتاح حاليا، وبعد الاستقلال سافر إلى فرنسا للعمل هناك، واشتغل هناك في عدّة أعمال قبل أن يستقرّ في العمل بإحدى المستودعات كبائع ومستقبل للسّلع مدّة عشر سنوات، عاد إلى الجزائر وعمل في البناء مدّة ثلاث سنوات، وفي سنة 1983 يقرر العودة للعمل في فرنسا، حيث عانى من البطالة مدّة من الزمن قبل أن يحصل على وظيفة في مركز للصناعات النوويّة، لينتخب رئيسا لنقابة العمال في ذلك المركز بسبب مواقفه ووقوفه في وجه الظلم، وفي سنة 1990 عاد إلى الجزائر للسكن في مدينة مفتاح، ولأنّه كان كثير الكلام في السياسة، طلبت منه أمّه المغادرة خوفا على حياته، فعاد إلى فرنسا سنة 1994 ليشتغل كعامل بإحدى المدارس.

تعرّف عيسى على عائلة "جيوتا" وهي إحدى العائلات المعارضة للحرب في الجزائر، أثناء حصوله على دروس في محو الأمية، ثمّ تعرّف على "ريجيس جيوتا " الّذي عرض عليه عيسى ما كان يكتبه، وكانت الفكرة لدى عيسى أن يكتب بعض الصفحات ليخلّد تاريخ أخيه رمضان الشّهيد وعائلته. وبعد إطّلاع "ريجيس جيوتا "على عمل عيسى ثمّنه وشجّعه على المواصلة، حيث قام بعد ذلك ريجيس جيوتا بمعالجة ماكتبه عيسى بأسلوب أدبي أكاديمي وبحضور عيسى.

بقي عيسى يتنقل بين الجزائر وفرنسا حتى يومنا هذا، دون أن يطلب الحصول على الجنسية الفرنسية وقد عرضت عليه مرارا ورفضها لأنّه كان يعتبر ذلك خيانة لعهد الشهداء، كما رفض نقل عائلته إلى فرنسا من هذا الباب أيضا.

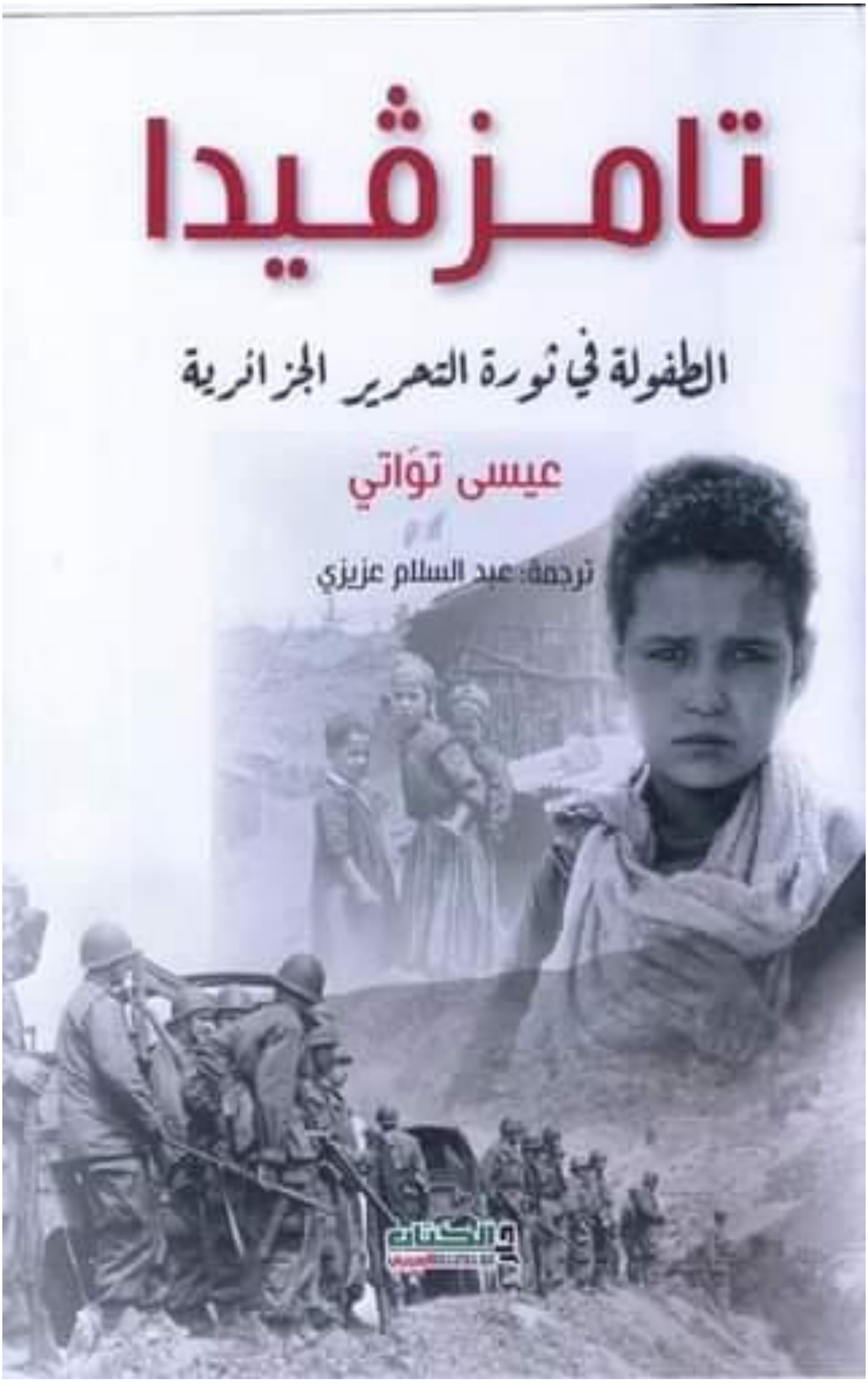
تامـزقيـدا
الطفولة في ثورة التحرير الجزائرية
عيسى توّاتي
ترجمة: عبد السلام عزيزي

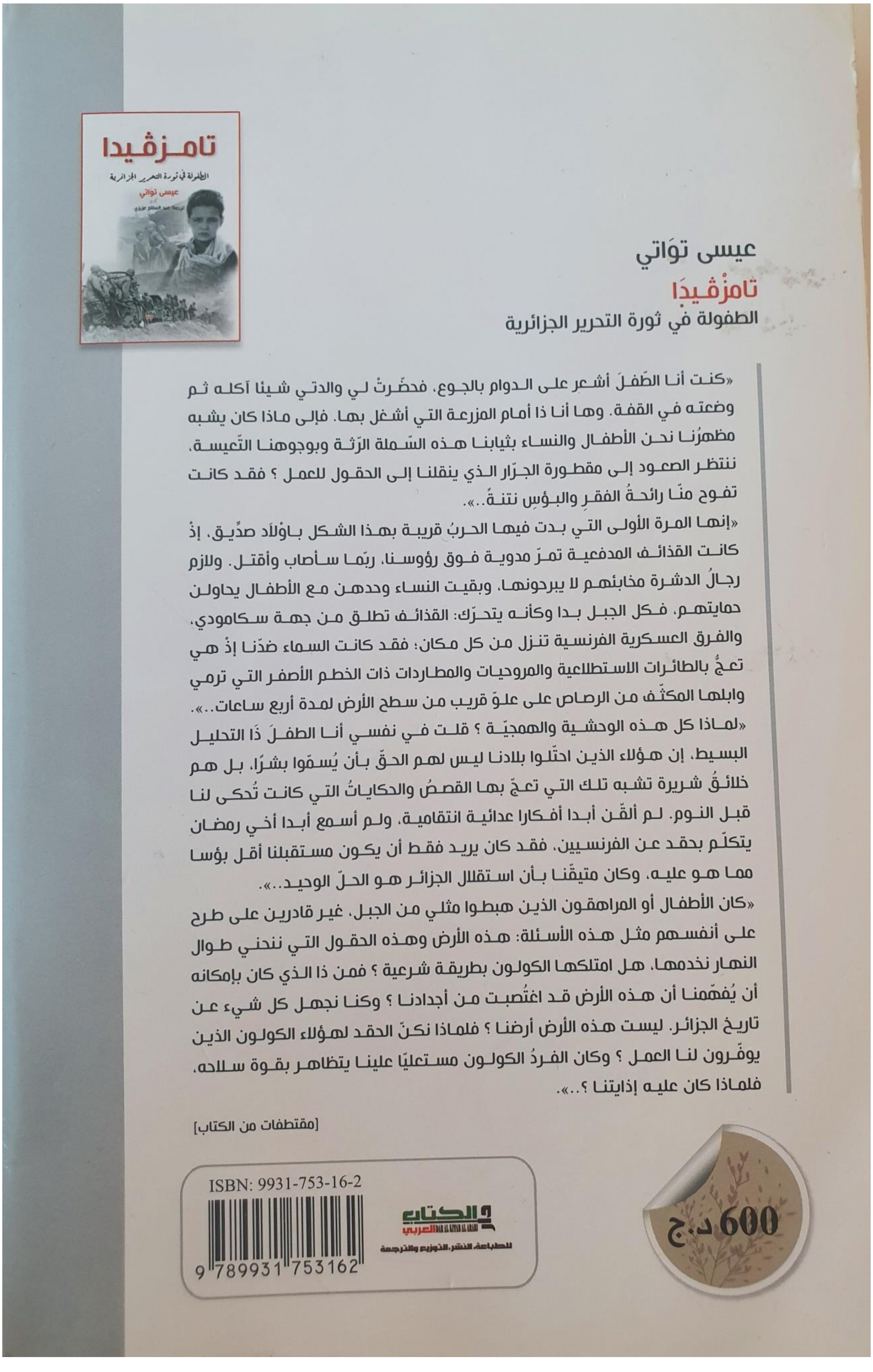

تامـزڤـيدا
الطفولة في ثورة التحرير الجزائرية
عيسى تواتي

عيسى توَاتي

تامزْڤـيدَا

الطفولة في ثورة التحرير الجزائرية

«كنـت أنـا الطّفـلَ أشـعر علـى الـدوام بالجـوع، فحضَّرتْ لـي والدتـي شيئا آكلـه ثـم وضعتـه فـي القفـة. وهـا أنـا ذا أمـام المزرعـة التـي أشـغل بهـا. فإلى مـاذا كان يشبه مظهرُنـا نحـن الأطفـال والنسـاء بثيابنـا هـذه السَّـملة الرَّثـة وبوجوهنـا التّعيسـة، ننتظـر الصعـود إلـى مقطـورة الجـرّار الـذي ينقلنـا إلـى الحقـول للعمـل ؟ فقـد كانـت تفـوح منّـا رائحـةُ الفقـرِ والبـؤسِ نتنـةً..».

«إنهـا المـرة الأولـى التـي بـدت فيهـا الحـربُ قريبـة بهـذا الشـكل بـأوْلَاد صدّيـق، إذْ كانـت القذائـف المدفعيـة تمـرّ مدويـة فـوق رؤوسـنا، ربّمـا سـأصاب وأقتـل. ولازم رجـالُ الدشـرة مخابئهـم لا يبرحونهـا، وبقيـت النسـاء وحدهـن مـع الأطفـال يحاولـن حمايتهـم. فـكل الجبـل بـدا وكأنـه يتحـرّك: القذائـف تطلـق مـن جهـة سـكامودي، والفـرق العسـكرية الفرنسـية تنـزل مـن كل مـكان؛ فقـد كانـت السـماء ضدّنـا إذْ هـي تعجُّ بالطائـرات الاسـتطلاعية والمروحيـات والمطـاردات ذات الخطـم الأصفـر التـي ترمـي وابلهـا المكثّـف مـن الرصـاص علـى علوّ قريـب مـن سـطح الأرض لمـدة أربـع سـاعات..».

«لمـاذا كل هـذه الوحشـية والهمجيّـة ؟ قلـت فـي نفسـي أنـا الطفـلَ ذَا التحليـل البسـيط، إن هـؤلاء الذيـن احتلّـوا بلادنـا ليـس لهـم الحـقّ بـأن يُسـمّوا بشـرًا، بـل هـم خلائـقُ شـريرة تشـبه تلـك التـي تعـجّ بهـا القصـصُ والحكايـاتُ التـي كانـت تُحكـى لنـا قبـل النـوم. لـم ألقّـن أبـدا أفـكارا عدائيـة انتقاميـة، ولـم أسـمع أبـدا أخـي رمضـان يتكلّـم بحقـد عـن الفرنسـيين، فقـد كان يريـد فقـط أن يكـون مسـتقبلنا أقـل بؤسـا ممـا هـو عليـه، وكان متيقّنـا بـأن اسـتقلال الجزائـر هـو الحـلّ الوحيـد..».

«كان الأطفال أو المراهقـون الذيـن هبطـوا مثلـي مـن الجبـل، غيـر قادريـن علـى طـرح علـى أنفسـهم مثـل هـذه الأسـئلة: هـذه الأرض وهـذه الحقـول التـي ننحنـي طـوال النهـار نخدمهـا، هـل امتلكهـا الكولـون بطريقـة شـرعية ؟ فمـن ذا الـذي كان بإمكانـه أن يُفهّمنـا أن هـذه الأرض قـد اغتُصبـت مـن أجدادنـا ؟ وكنـا نجهـل كل شـيء عـن تاريـخ الجزائـر. ليسـت هـذه الأرض أرضنـا ؟ فلمـاذا نكـنّ الحقـد لهـؤلاء الكولـون الذيـن يوفّـرون لنـا العمـل ؟ وكان الفـردُ الكولـون مسـتعليًا علينـا يتظاهـر بقـوة سـلاحه، فلمـاذا كان عليـه إذايتنـا ؟..».

[مقتطفات من الكتاب]

ISBN: 9931-753-16-2

9 789931 753162

الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

600 د.ج

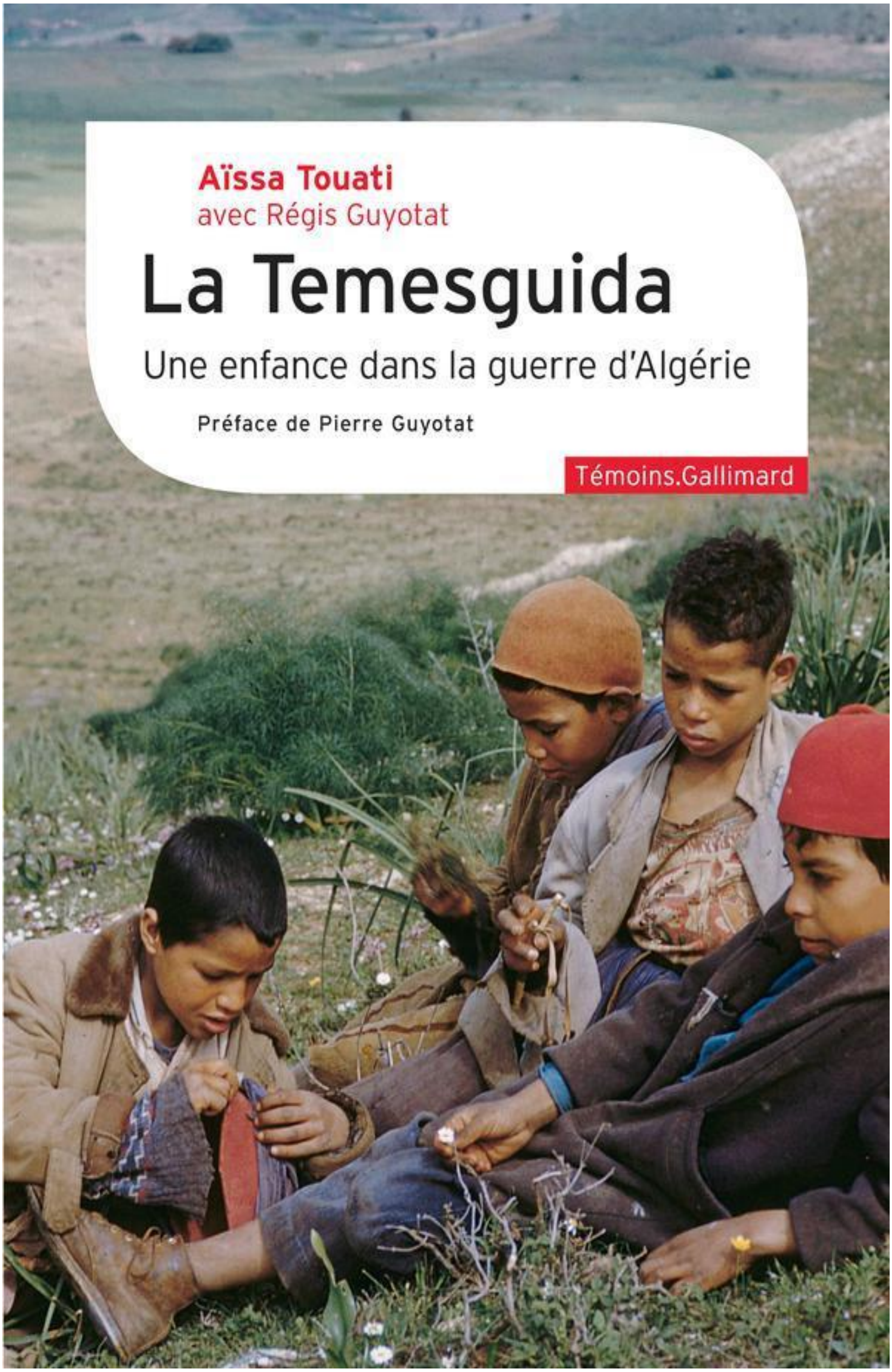
Aïssa Touati
avec Régis Guyotat
La Temesguida
Une enfance dans la guerre d'Algérie
Préface de Pierre Guyotat
Témoins.Gallimard

RE

gnarde sous les bombes

HEBDO LITTÉRAIRE ANIMÉ PAR: Rachid Mokhtari

Il raconte, sous la plume de Régis Guyotat, ancien journaliste au journal le Monde, son ... qui doit garder les chèvres, sans être jamais à l'école, mangeant rarement à sa faim.

: son frère Ramdane accueil- ar Ali, Aïssa résiste au sacri- de ses moutons qui sont sa on d'être. Le troupeau vaut que toute autre guerre. La ile n'aura plus rien à manger. nom de quoi et pour quelle se ? Mais Ali, l'ami d'enfance son frère et la dignité des mes qui attendent, épuisés une longue marche, affamés, la pâte des galettes lève, fiant et respectueux, subju- it l'enfant Aïssa voyant sa e retrouver son énergie ant ces hommes inconnus e-là de Temesguida. Mais

> Le village et ses ndemains incertains, vient une guerre qui onne du sens à cette rvivance et se projette hors de l'instinct de survie.

ant qui grandit bon an mal an démord pas. Son troupeau, utte quotidienne pour la sub- ance alimentaire, ses nces de berger intrépide rent le cours de l'histoire. qu'au jour funeste où son décide d'aller se réfugier à r où il devient marchand ulant pour subvenir aux oins urgents de sa famille res- à Oueld Seddik.

Ruines et exodes

frère aîné est au maquis. Il lus donné signe de vie parmi katibas de l'ALN qui passent la montagne. Aïssa a douze et ses épaules sont encore frêles pour porter le fardeau lial. Il faut alors redoubler géniosité dans un climat d'in- urité de plus en plus mena-çant. Les ratissages de l'armée française ne laissent aucun répit aux paysans qui deviennent des fellaghas potentiels ou réels. Des arrestations, des tueries à vue ; les harkis souillent Temesguida. Mais tout ce que le pré-adolescent Aïssa a vécu jusque-là n'est rien. Il a le cran de mener paître son troupeau sous les avions mouchards qui déversent du ciel des monstres, braver un barrage militaire.

Mais, depuis que la guerre a le visage de son frère aîné, il prend conscience de manière implicite qu'il n'a d'autres choix que de se mettre sur les pas de ce frère aîné. Un « nif » familial qui s'élargira en honneur de tout un pays, y compris celui de la France. Car, étrangement, Aïssa n'a jamais entendu Ramdane, son frère aîné, moudjahid, insulter la France ou encore Ali au plus fort de la tragédie. Il parle d'organisation, de stratégies, de sacrifices, de combats, de solidarités dans les rangs. 1957. Temesguida est déclarée zone interdite. Le village est évacué. Bêtes et gens.

Aïssa et les siens n'ont même pas le droit au village de cantonnement, au statut de réfugiés. Ils trouvent refuge dans une famille éloignée dans un village limitrophe. Aïssa réussit à retrouver son troupeau, surtout les chèvres plus alertes au danger. Mais, un matin, une épaisse fumée s'élève de Ouled Seddik, bombardée par l'armée.

Ruine et désolation. Aïssa, au mépris du danger, revient à Ouled Seddik devenu un amoncellement de cendres. Il y retrouve son âne blessé. Il le soigne en saupoudrant ses blessures de café moulu comme il a vu sa mère soigner ses propres écorchures avec le même produit. Ali, le mes'oul est là, intangible. Il insiste auprès de Aïssa pour que sa famille revienne au village natal pour perpétuer les coutumes ancestrales, ne pas perdre le pieu au mépris du danger.

La famille tente un retour mais les cendres et l'écroulement physique et symbolique de la demeure sont plus forts. Le frère aîné Ramdane est loin, peut-être en Tunisie, parmi les cadres de la révolution partis en stage pour mieux lutter contre l'ennemi. C'est alors l'exode, la mort dans l'âme, dans une capitale, Alger, elle aussi, meurtrie, quadrillée par Bigeard.

La famille rejoint le père à Belcourt. Aïssa quitte Temesguida, prend le bus pour la première fois, découvre la ville effarouché, troque sa gandoura contre un pantalon, enlève sa chechia rouge. Il a une quinzaine d'années. C'est un adolescent, vif, méthodique au travail, frondeur. Il est embauché comme khammes dans les fermes coloniales à une quarantaine de kilomètres à l'Est de la capitale mais la misère le talonne.

A Alger, les bidonvilles indigènes croissent comme des champignons vénéneux. Toute la famille élit domicile à Rivet (Meftah) dans un autre bidonville. Là, Aïssa assiste à des exécutions massives de prisonniers algériens exécutés en public pour le spectacle desquelles on a fait venir la population du bidonville au prétexte d'une distribution de denrées alimentaires. Fait ubuesque, il participe à un match de foot opposant une équipe algérienne dont il est, arborant une tenue aux couleurs du drapeau algérien, à une équipe composée d'appelés du contingent. le match terminé, les joueurs algériens, maquisards ou mes'oul sont arrêtés, torturés ou fusillés.

Temesguida et le nouveau monde...

Le cessez-le-feu et la liesse de l'indépendance ne terminent pas le récit comme en une apothéose ; car les nouvelles du frère aîné, Ramdane, arrivent ainsi que celles de son ami intime Ali, le mes'oul impénitent de Ouled Seddik. Elles viennent gâcher la fête. Ils sont morts en 1960 à la veille de l'indépendance. Vingt ans ne sont pas écoulés que,

> Des arrestations, des tueries à vue ; les harkis souillent Temesguida. Mais tout ce que le pré-adolescent Aïssa a vécu jusque-là n'est rien. Il a le cran de mener paître son troupeau sous les avions mouchards qui déversent du ciel des monstres, braver un barrage militaire.

dans ce bastion de l'épopée du jeune berger et des autres bergers de la résistance armée, un sinistre Bouyali, des premiers maquis du GIA fait couler le sang fratricide à Temesguida et, quelques années de plus, les moines de Tibhirine, enlevés aux pieds de Temesguida sont égorgés dans les maquis de Tablat. Aïssa Touati raconte ces revers de l'histoire sous la plume concise, alerte et fidèle aux réalités jamais tronquées de Régis Guyotat, un ancien journaliste du monde qui a rencontré Aïssa Touati alors émigré en France, à Orléans, lors des cours d'alphabétisation.

Depuis, leur amitié scellée a donné naissance à ce témoignage bouleversant, le premier du genre qui n'est ni héroïque, ni polémiste.

Un récit nu, poignant, humain. Il est préfacé par le frère de régis, Pierre Guyotat, appelé du contingent, « soldat récalcitrant » qui a connu l'Algérie et donné la main fraternelle pour son indépendance.

« Temesguida. une enfance dans la guerre d'Algérie » est édité dans la collection « Témoins » dirigée par l'historien Pierre Nora auteur de «Les Français d'Algérie» qui vient d'être réédité cinquante ans après sa première publication, en 1961, chez le même éditeur, Christian Bourgois.

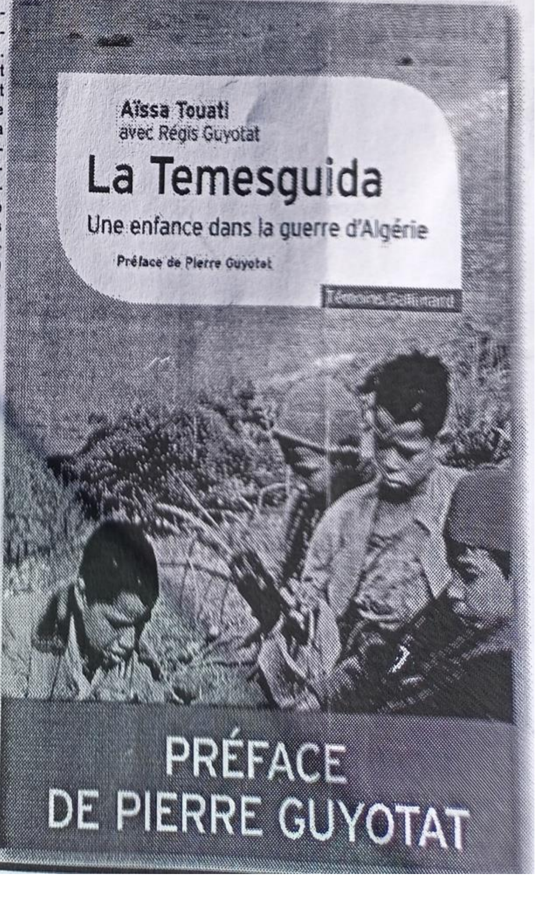

Bio express de Régis Guyotat

égis Guyotat est journaliste au journal le Monde. Il a publié avec h Bazgar Afghanistan, «La résistance au cœur» (Denoël, 1987). effectué des reportages, notamment au Cambodge, pour France ure.
...temps correspondant d'Orléans au journal le Monde, il a écrit ouvrages sur la France des paysans et des massifs. Ses articles ongs entretiens dans « le Monde Diplomatique » publiés ces der- es années s'intéressent aux publications d'historiens qui révèlent énoncent la politique néocoloniale de la France dans son imagi- e collectif.
ngagé auprès des travailleurs algériens émigrés, il assure à ces iers des cours d'alphabétisation. Il a publié notamment avec h Bazgar Afghanistan « La résistance au cœur » (1987) et «Le i des chaldéens» (2006).
...frère qui a préfacé « Temesguida, une enfance dans la guerre gérie », Pierre Guyotat, est un écrivain et dramaturge français. st appelé en Algérie en 1960, au printemps 1962, il est arrêté, rogé pendant dix jours par la sécurité militaire et inculpé d'at- te au moral de l'armée, de complicité de désertion et de posses- de livres et de journaux interdits. Après trois mois de cachot "au ret", il est transféré dans une unité disciplinaire. De retour à Paris, eur aux éditions du seuil...

LUNDI 24 JUIN 2013

24/06/15

L'EST

CULTU

Le Lundi de : Régis Guyotat et Aïssa Touati

Une enfance monta

L'auteur témoin, Aïssa Touati est né en 1945 dans le massif de Temesguida ... enfance et la vie de sa famille durant la guerre. Il a neuf ans. C'est un ...

Après l'indépendance, il émigre en France où il travaille comme ouvrier du bâtiment et prend des cours d'alphabétisation à Orléans ; cours dispensés par régis guyotat avec lequel il noue une longue amitié. «Temesguida. Une enfance dans la guerre d'Algérie» un lieu, un âge, une guerre.

Temesguida (Temesguida?) est un massif montagneux dans l'actuelle wilaya de Médéa, sur l'Atlas blidéen. Depuis son sommet s'élevant à 1 138m, Temesguida domine vers le nord la plaine de la Mitidja. Légendes, récits hagiographiques le donnent comme un refuge de saints patrons et, jusqu'à une époque récente, c'est une région où de nombreux Kabyles se sont installés comme vanniers tant la région regorge d'eau et de roseaux. Mais la Temesguida, dans ce récit, c'est le bastion quasi mythique de la résistance armée de l'ALN aux contingents de l'armée française qui ont maillé cette région tampon, stratégique, entre l'Atlas blidéen, le Djurdjura et les plaines de l'Algérois. Ses reliefs accidentés, ses grottes, sa végétation drue, ses replats en font une zone de repli en même temps qu'un refuge stratégique pour les katibas de l'ALN. Tout le récit s'y déroule en trois temps : avant l'arrivée de la guerre, moudjahiddine et soldats confondus, ses habitants vivaient dans une relative sécurité mais dans une extrême pauvreté, celle du sol et de la subsistance. La guerre, alors, était menée au quotidien contre les éléments de la nature : des hivers rigoureux, des étés caniculaires, un sol accidenté, ingrat, un cheptel maigre. Bref, la famine ! Une vie sauvage, insulaire même si de loin en loin, l'ordre colonial se signale par les nouvelles rapportées par ceux, rares, qui descendent au marché de Tablat. Puis, le deuxième temps, avec le déferlement de la guerre, Temesguida entre violemment dans l'histoire. Le massif montagneux est maillé par les militaires français, des routes ouvertes au bulldozer, comme des serpents, le ceinturent, étranglent les villages et les mettent à nu, à découvert. Mais la topographie des lieux offre encore aux combattants de l'ALN de la wilaya IV un terrain propice aux ripostes et à l'instauration perpétuelle d'un climat d'insécurité sur l'étendue de la plaine de la Mitidja, le symbole de la conquête coloniale. Entre ce lieu resté imprenable, inviolable et la Mitidja domestiquée, où s'étendent d'aise les fermes opulentes des héritiers de Bugeaud, le contraste n'est pas dans le relief mais bien dans le rapport de force entre les laissés-pour-compte, l'indigène dépossédé, et une présence française qui grignote les contreforts de la Tamesguida jusqu'à installer ses miradors en son sommet. Le troisième temps, enfin, c'est l'exode, les villages de regroupement, Alger, Rivet (Meftah) au bout, une indépendance avec ses martyrs de la Temesguida oubliée.

Une histoire de berger

Ce cadre géographique et historique ainsi posé ne se donne pas à lire comme tel dans ce récit d'une enfance, celle du narrateur témoin, un enfant berger, on aurait dit sorti d'un roman de Giono, à la différence que la nature n'est pas un culte, une vénération, mais une condition humaine à la limite d'un Robinson Crusoé qui n'a pas échoué sur une île mais qui y est né tout en sachant que le monde qui l'entoure n'est pas à sa portée, ni n'est une fatalité. Cette enfance est celle de Aïssa Touati qui raconte son vécu âpre et «sauvage» dans ce massif imposant avant de rejoindre son père à Alger, à Belcourt et, de là, élire domicile dans un torchis, à Rivet (actuelle Meftah) jusqu'à l'indépendance. Dans ce récit, linéaire, écrit à la première personne, l'enfance n'est pas évoquée dans un passé nostalgique, larmoyant, voire, à posteriori, enjolivée par l'effet du recul du temps, mais elle est dite dans un présent de narration, sans gloire ni passion, dans ses vérités immanentes, ses pulsions du moment. Le lecteur se surprend à se familiariser avec un garçonnet qui n'est ni un Omar de Mohamed Dib, encore moins un Fouroulou de Mouloud Feraoun, formatés pour les besoins de la fiction. L'enfant Aïssa Touati est né, dans ce village à flanc de ravins, Ouled Seddik, au milieu d'une famille soumise à une extrême pauvreté. un père chasseur à l'occasion, une mère comme toutes les mères d'Algérie, à cette époque de la fin des années 1940, qui redouble d'ingéniosité pour nourrir ses enfants – deux autres fils dont l'aîné Ramdane, qui sous-tend le récit dans son versant historique, une fille effacée, un autre garçonnet, le benjamin – les nourrir de contes la nuit pour leur faire oublier la faim qui tenaille les ventres. Enfant, Aïssa tient plus que tout à son maigre troupeau composé de quelques moutons, de chèvres et d'un âne homérique. Toute la montagne lui appartient. Il en connaît les grottes, les méplats, les deux-bassins, les rivières, les animaux qui y vivent, luttant contre les chacals dont il a appris l'espièglerie et les sangliers qui ravagent les maigres jardins potagers. Sa guerre à lui, de l'aube à la tombée de la nuit, hiver comme été, est de protéger quoi qu'il en coûte le troupeau, la seule richesse de la famille. Dans les quelques hameaux disséminés autour de Ouled Seddik vivent des êtres infrahumains, enfouis, bêtes et gens mêlés, dans les replis de ravins qui donneraient le vertige aux chèvres les plus intrépides. Le père de Aïssa a pourtant un joyau qu'il n'hésite pas à exhiber, une montre en or, un fusil et des relations somme toutes surprenantes avec la lointaine administration coloniale de Tablat par ses représentants locaux de l'indigénat. Aïssa est un enfant maigre, sale, qui va pieds nus en été, à peine chaussé en hiver d'espadrilles confectionnés à partir de pneus de voiture, un luxe. La faim, toujours la faim, est son ennemi au quotidien. Quelques enfants du village et des environs immédiats de la Temesguida ne sont pas mieux lotis. Ils forcent pourtant le destin pour trouver sur ce piton de montagne le génie de l'invention des jeux et des soleils intimes accrochés, l'automne venant, à une maigre mais salvatrice récolte d'olives, l'été cuisant, aux figues mûres, vite mises sur les claies en prévision de l'hiver. Le récit, on aurait dit, est lui-même condamné aux frontières accidentées de cette montagne ancestrale sur laquelle, dit-on, veille, le Saint patron, Si Mohamed Bouchakour, dans sa grotte « Ghar Targou » dans la région des Beni Foughal. Mais le saint n'a rien pu faire devant ces monstres de fer venus un matin défoncer la terre, ouvrir des routes à l'occupant de la plaine. Le jeune Touati pressent le danger mais en ignore les tenants et les aboutissants.

Temesguida (Temesguida?) est un massif montagneux dans l'actuelle wilaya de Médéa, sur l'Atlas blidéen. Depuis son sommet s'élevant à 1 138m, Temesguida domine vers le nord la plaine de la Mitidja.

Le berger dans l'histoire

Graduellement, son monde familier s'effrite. La montagne est secouée de ses contreforts à son sommet. La guerre n'est plus celle du jeune berger affrontant les éléments de la nature, esquivant la faim, luttant avec pathétisme aux rigueurs de sa montagne natale mais ingrate. La guerre, si elle a été un acharnement opiniâtre et séculaire à perpétuer un lien ombilical avec la terre. Le village et ses lendemains incertains, devient une guerre qui donne du sens à cette survivance et se projette hors de l'instinct de survie. Temesguida n'est plus alors pour l'enfant, qui grandit surtout dans sa tête, l'univers reclus prédestiné aux « damnés de la terre » mais une déflagration d'un nouveau monde qui surgit de la volonté des hommes et des femmes qui participent, désormais, à la marche de l'histoire. Aïssa comprend alors qu'il habite les sommets de la résistance à l'occupation coloniale. Pourtant, il ignore tout de la France, de l'Algérie, de l'histoire de ces deux pays, d'autres pays. Il ne va pas à l'école, il porte une gandoura élimé, sans sous vêtement, fait ses besoins où bon lui semble, se frotte l'arrière-train avec des cailloux ou sur l'herbe sauvage. Comment un tel « sauvage » peut-il seulement être à l'écoute des palpitations du monde ? Il n'a jamais vu un « Français » de près. Pourtant, la guerre, celle des armes, va toucher au cœur même de sa famille. Le frère aîné, Ramda[ne] un jour, est revenu blessé d'[une] balle à la cuisse, après plusi[eurs] jours passés cachés dans [une] grotte, à quelques mètres en [des]sous d'une crête occupée p[ar des] militaires français. Cette n[uit] quelque chose s'est brisée [dans] le regard de Aïssa. Ce frèr[e] sur lequel tous les espoir[s fami]liaux reposent, espoir de [jours] meilleurs pour la mèr[e] devenu un « moudjahid [...] ami, Ali, devenu le mes[...] résistance à Oueld Sed[dik ...] un nouveau langage, d[...] jusque-là étranger[...] Temesguida où les rap[ports de] force demeuraient ce[...] par la survivance aux [...] nature. Cette fois, il s'a[git de soli]darité, d'union, de sa[...] cotisations, de dons, [...] d'organisations. Le [...] premières colonnes [...] hiddine sont arrivées

12

LUNDI 24 JUI

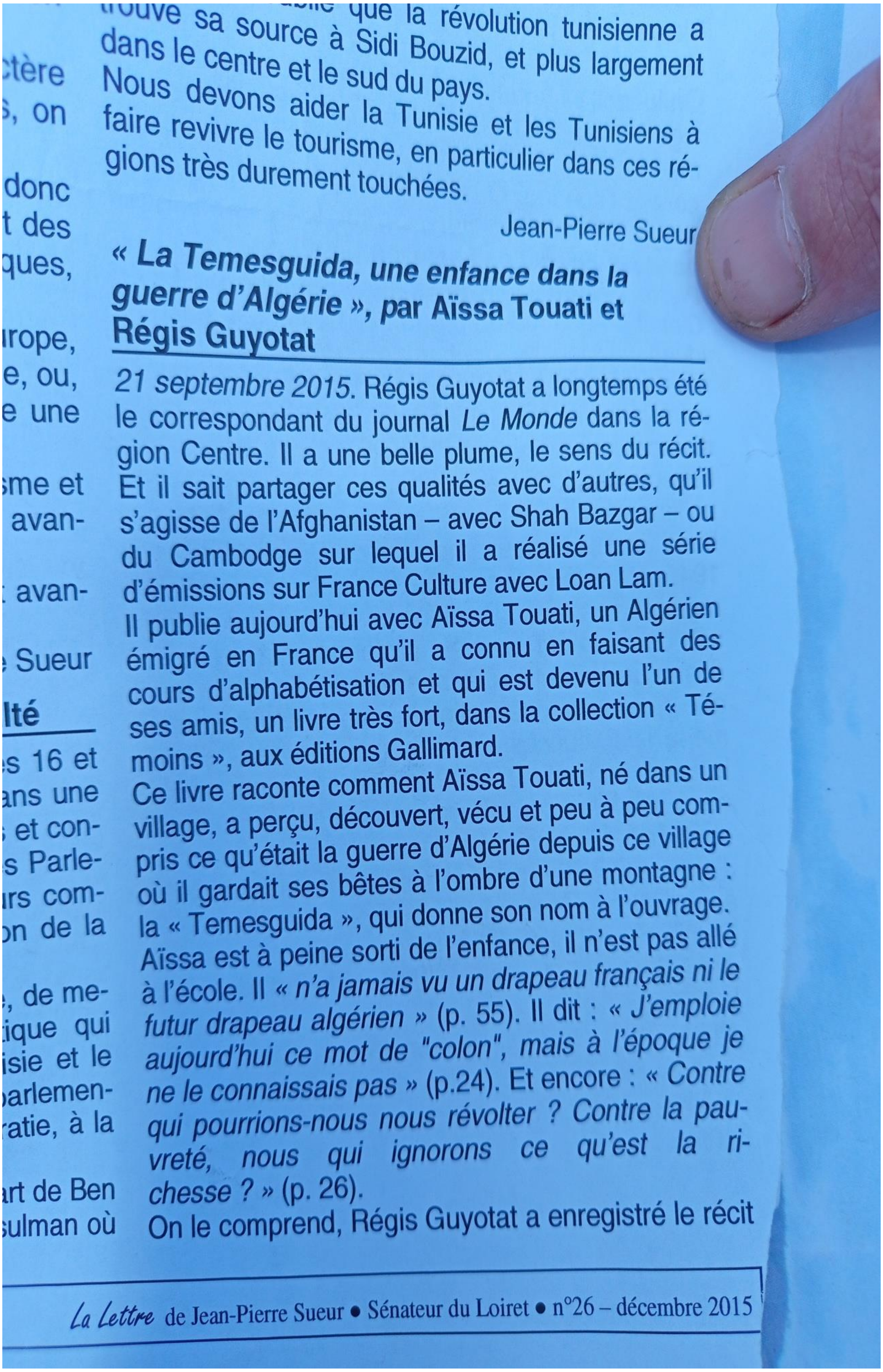

trouve sa source à Sidi Bouzid, et plus largement dans le centre et le sud du pays.
Nous devons aider la Tunisie et les Tunisiens à faire revivre le tourisme, en particulier dans ces régions très durement touchées.

Jean-Pierre Sueur

« La Temesguida, une enfance dans la guerre d'Algérie », par Aïssa Touati et Régis Guyotat

21 septembre 2015. Régis Guyotat a longtemps été le correspondant du journal *Le Monde* dans la région Centre. Il a une belle plume, le sens du récit. Et il sait partager ces qualités avec d'autres, qu'il s'agisse de l'Afghanistan – avec Shah Bazgar – ou du Cambodge sur lequel il a réalisé une série d'émissions sur France Culture avec Loan Lam.
Il publie aujourd'hui avec Aïssa Touati, un Algérien émigré en France qu'il a connu en faisant des cours d'alphabétisation et qui est devenu l'un de ses amis, un livre très fort, dans la collection « Témoins », aux éditions Gallimard.
Ce livre raconte comment Aïssa Touati, né dans un village, a perçu, découvert, vécu et peu à peu compris ce qu'était la guerre d'Algérie depuis ce village où il gardait ses bêtes à l'ombre d'une montagne : la « Temesguida », qui donne son nom à l'ouvrage.
Aïssa est à peine sorti de l'enfance, il n'est pas allé à l'école. Il *« n'a jamais vu un drapeau français ni le futur drapeau algérien »* (p. 55). Il dit : *« J'emploie aujourd'hui ce mot de "colon", mais à l'époque je ne le connaissais pas »* (p.24). Et encore : *« Contre qui pourrions-nous nous révolter ? Contre la pauvreté, nous qui ignorons ce qu'est la richesse ? »* (p. 26).
On le comprend, Régis Guyotat a enregistré le récit

La Lettre de Jean-Pierre Sueur • Sénateur du Loiret • n°26 – décembre 2015

Saint Etienne 13/4/2018

Denise Viallet
rue Gérard Philipe
2100 St Etienne
iallet.denise@gmail.com

à Monsieur Aïssa Touati

Monsieur,

On ne se connait pas mais on aurait pu se croiser en 1959 dans le secteur du Bouzegza évoqué dans votre livre-témoignage "La Tamesguida" que j'ai beaucoup aimé.

J'ai passé le mois d'août 1959 dans le poste militaire du djebel Bouzegza au titre d'institutrice des filles du village de regroupement. Des souvenirs ineffaçables qui m'ont conduite à témoigner de cette période si compliquée et si difficile.

Je souhaiterais vous faire parvenir un exemplaire de "1959 Journal d'une femme d'appelé".

A quelle adresse puis-je l'envoyer?

Dans l'espoir d'une réponse, je vous prie de recevoir mes sincères salutations

1) أيمن بك، السّرد في مقامات الهمذاني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر.

2) بن عتّو بلبروات، مجلة عصور الجديدة، عدد خاصّ بخمسينية الاستقلال الوطني، ربيع 1434هـ 2013 م العدد9 .

3) جان ريكاردو، قضية الرواية الحديثة، تر: صلاح الجيهم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، 1977.

4) جوليا كريستيفا، علم النّص، ترجمة: فريد الزاهي، عبد الجليل ناظم، دار طوبقال الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثاني، 1997 .

5) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ترجمة محمد معتصم وآخرون، المشروع القومي للتّرجمة مصر الطبعة الثانية، 1997 .

6) جيرالد برنس، المصطلح السّردي ـ معجم المصطلحات ـ تر:عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003.

7) حسين بحراوي، بنية الشّكل الرّوائي، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، الطّبعة الأولى 1990.

8) حميد الحمداني، بنية النّص السّردي، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، الطّبعة الأولى1991.

9) روجر ألن، الرواية العربيّة، مقدّمة تاريخيّة ونقديّة، المؤسسة العربيّة للدّرسات والنّشر الكويت الطّبعة الأولى .

10) رولان بورنوف وريار أوتيليه، عالم الرّواية، تر: نهاد التّكريتي، دار الشّؤون الثقافيّة العامّة بغداد 1991.

11) زهور كرام، ذات المؤلّف: من السّيرة الذّاتية إلى التّخييل الذّاتي، مطبع الأمنيّة الرباط 2013.

12) العيد يمنى، الرّواية العربيّة: المتخيّل وبنيته الفنيّة، دار الفرابي، بيروت الطّبعة الأولى 2011.

13) عيسى تواتي، تامزقيدا، دار الكتاب، حيّ الآمال01 فيلا 27 خرايسيّة الجزائر، الطّبعة الأولى 2019 .

14) قسم الدّراسات والبحوث في جمعيّة التّجديد الثقافيّة الاجتماعيّة: الأسطورة توثيق حضاريّ الطّبعة الأولى، دار كيوان، 2009.

15) محمد الدّوهو، مدخل إلى خطاب الكتابة والذّات في الرّواية المغربيّة، آفاق، مجلة إتّحاد كتاب المغرب، الرّباط: منشورات اتّحاد كتّاب المغرب، دجنبر، 2010.

16) محمد برادة، فضاءات روائيّة، مطبعة دار المناهل، الرّباط: وزارة الثقافة الطّبعة الأولى 2003.

17) محمد مصاريف، الرّواية الجزائريّة بين الواقعيّة والالتزام، الدّار العربيّة للكتاب الجزائر الطّبعة الأولى، 1983.

18) مومن سعد، الطّعام والجوع في رواية الدّار الكبيرة، دراسات وأبحاث، العدد07 رقم25.

19) ميساء سليمان الإبراهيمي، البنية السّردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، منشورات الهيئة العامّة السّورية للكتاب، دمشق، 2011.

20)ويليك، رينيه، وارين أوستن، نظرية الأدب، تر: محيى الدّين صبحى، مر: د. حسام الخطيب المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، دمشق، 1972.

21) يوسف إسكندر، تقنيات السرد في عالم علي بدر الروائي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد 2009.

22) Pierre bourdieu (sociologie de l'algerie), que je sais ?, Editions Dahlab 7eme éd, 1985, p123.

المواقع الايكترونية:

أحمد زياد محبك ، جماليات المكان في الرواية ، موقع : ديوان العرب.https://www.diwanalarab.com2005 يونيو 6 ، 11:09 : 08جوان 2022 الساعة

صفحة	المحتوى
	شكر
	إهداء
05-01	**مقدمة**
10-06	**مدخل**
28-11	**الفصل الأول: السّياق التّاريخيّ للرّواية**
19-12	1- تقديم الرّواية.
24-19	2-اشتغال التّاريخ.
28-24	3-التّفاعل مع الأجناس الأدبيّ
45-30	**الفصل الثاني: الأبعاد الاجتماعيّة في رواية تامزقيدا**
34-31	1-الظاهرة الاستعمارية.
36-34	2-الحرمان من التّعليم.
40-36	3-انتشار الأمراض والآفات الاجتماعيّة.
44-40	4-الفقر.
46-44	5-الجوع.
79-46	**الفصل الثّالث:البنية السرديّة للرّواية**
60-47	1- الشخصيات.
67-60	2- الزمن.
80-68	3- المكان.
83-82	**خاتمة**
92-85	**ملحق**
95-93	**قائمة المصادر والمراجع**
96	**فهرس المحتويات**